مطبوعات كتابي

يصدرها حلمي مراد





«بلاسكو إيبانيز»

قصص من "إيبانيز"

بلاسكو إيبانيز

قصص من إيبانيز

CONTES et NOUVELLES
PAR
BLASCO IBANEZ

الثمن : ١٥ قرشا

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب الواحد والسبعون

قصص من اليابان

ترجمة : ابراهيم المصرى

الادارة : عمارة الجندول – ١٤ شارع ٢٦ يوليو – بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦ ، ٤٦٤٧٥

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

• تطلب الأعداد السابقة من كل من المجموعتين من :

صدر منها ستة وتسعون كتابا ، يضاف اليهـا كتاب جديد فى أول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها واحد وسبعون كتابا ، ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو » ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج٠ع٠م والسودان والمملكة السعودية والأردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الأخرى والبلاد الأجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .

ولمن شاء أن ترسل له الأعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الأخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، او تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان ارسال القيمة بحوالة بريدية .

عقيدة الشرف

قال المزارع أورلاندو :

نشأت فى قرية أسبانية محافظة ، تخلفت فيها أخلاق وعادات عربية صميمة ، أهمها : اكرام الضيف ، والوفاء بالوعد ، وحماية الضعيف ، والذود عن العرض .

وكانت هذه الفضائل جميعا تنبع من فضيلة رئيسية هى تمجيد الشرف باعتباره القوة المعنوية العليا التى يجب أن تسيطر على الانسان فى حياته الخاصة وفى سلوكه مع الناس .

فالشرف ، ولا سيما شرف الاسرة ، كان بعد الدين عقيدتى وعقيدة جميع أهل القرية التى نشأت فيها . وقد استمسكت بهذا الشرف جهدى وحرصت عليه حرصى على حدقة عينى ... ثم رأيته فجأة وقد امتدت اليه يد غادرة أثيمة ، يتصدع تحت ضرباتها الغاشمة ، ويتقوض وينهار أمام عينى ..

وهذه هى مأساتى . هى صورة حية لتمجيد عقيدة الشرف كما ورثها معظم القرويين الاسبان عن أسلافهم العرب .

* * *

اقبلت ابنتى « دولوريس » على الخياطة ملهوفة ، وتناولت منها ثوب العرس ثم وقفت تجاه المرآة الكبيرة ، مشرقة الوجه ، ضاحكة السن ، وشرعت تجرب الثوب الرائع ، وحولها بنات

عمها الثلاث يساعدنها ، ويهتفن لجمالها ، ويبدين للخياطة بعض الملاحظات ٠٠٠

وكان ذلك فى صباح يوم العرس نفسه ، والبيت كله مائج مصطخب ، والخدم يعدون العدة لحفلة المساء ٠

وفى نشوة هذه السعادة الغامرة ، وفى سنيل بهجتها المتدفق على الجميع ، كنت أنا وحدى اتألم ، وأنا وحدى اتمزق ، وأنا وحدى أوشك أن اختنق وأموت ٠٠ أجل ٠ كنت اجأر من فرط الألم ، واتلوى من فرط العذاب ، ولا أكاد أتصور ماوقع حتى يتوه فكرى ، ويجمد الدم فى عروقى ، ويعترينى شبه هوس وخبـــال ٠٠

كانت الغيرة تنهشنى ، وهول التصور يصعقنى ، وعوامل الحيرة والقلق والحنق والخوف تتنازع نفسى وتقلبنى على مثل جمر النار ٠٠٠

كل شيء قـــد تحطم فجـــأة أمام عينى !٠٠ كل أملى ، كل حياتى ، كل ما كنت احبه واقدسه فى دنياى !٠٠ تحطم الآن فقط !٠٠٠ تداعى اليوم فقط !٠٠٠ يوم فرحى وأملى وسعادتى ، يوم عرس ابنتى العزيزة الوحيدة دولوريس !٠٠٠ ابنتى ؟!٠٠ أحقا هى ابنتى ؟! ٠٠ أفى الامكان تصور هذا ؟! ٠٠ لا ٠٠ ليست دولوريس ابنتى ! ٠٠ لا شيء فيهـــا منى البتة !٠٠ ومع ذلك فأنا أحبها كأنهـــا ابنتى ٠٠ أحبهـــا وأعبدهـــا وأشعر شعورا متأصلا عميقا أنهـــا ابنتى !٠٠٠ لقد ربيتهـــا وتعهدتها سبعة عشر عاما وأنا أحس أنهـــا من خالص لحمى ودمى !٠٠٠ ياالهول ماحدث !٠٠٠ انى لأتمنى لواستطعت أن

أمحو الآن عارى بارتكاب جريمة قتل !... لقد راودتنى فكرة القتل عندما سحقتنى الحقيقة واناخ على الشعور بالعار !

كان ذلك منذ برهة .. منذ لحظة .. وكانت زوجتى الصبية الجميلة « كارمن » قد مكثت فى مخدعها زهاء ساعة ، تتخير من أثوابها وحليها ما سوف تتجمل به فى حفلة المساء . فلما أعلن الخادم مقدم السنيور « الكسندرو » – صديقى الحميم وصديق الاسرة منذ عشرين سنة – خفت زوجتى لاستقباله ، ونسيت نفسها ، وتركت المخدع مشوشا كما كان ...

وفى تلك اللحظة نفسها غادرت أنا حجرة ابنتى ، ودخلت مخدع امرأتى ، انبئها بأن الخياطة قد أقبلت تحمل ثوب العرس وفى صحبتها بنات أخى الثلاث .

وما كدت أدخل مخدع زوجتى ، واجيل البصر فيه ، حتى أخذت عيناى غلافا أزرق اللون زاهيا يلمع بين أكوام البياضات . فلم أكترث وهممت بالخروج . ولكن شيئا غريبا عنى ، شيئا أقوى منى ، حول بصرى واتجه به صوب الغلاف الازرق . فانحنيت بكل بساطة ، وانتزعت الغلاف من بين أكوام البياضات ، وألقيت على العنوان نظرة ...

وكان الخطاب باسم امرأتى ، فأثار ذلك فضولى ، ففضضت الغلاف لفورى ، وشرعت أقرأ ..

وكما يدوى الرعد فى هدأة الليل ثم يعقبه برق خاطف يمزق حجب الظلام ، كذلك دوت الألفاظ المروعة فى رأسى ، ومزقت بروقها ظلمة ماضى ، وصبت عليها فجأة سيولا خاطفة من نور ...

أدركت فى يوم فرحى وأملى وسعادتى ، فى يوم عرس ابنتى، أدركت وأنا تائه ضائع منسحق ، أن زوجتى قد خدعتنى ، وأن ابنتى ليست من صلبى ، وانها فى الحقيقة ابنة ذلك الصديق الغادر الماكر الوضيع السنيور الكسندرو !٠٠ وكان الكسندرو قد نشأ فى القرية معى ، وكنت أشعر أنه أحب رفاق الصبا الى نفسى ٠ فوطأته كنفى ، ومنحته ثقتى ٠ فعرف كيف يندس فى بيتى منذ أول عام لزواجى ، وكيف يفتن امرأتى ويغويها ، ويمثل أمامى دور الصديق الوفى الذى لا ينفك يحلق بنزاهته وشرفه واخلاصه فوق جميع الشبهات ٠٠!

وكان الكسندرو يعيش فى قريتنا ويعمل فى مزرعة والده٠ فى مدريد ٠٠ فكان يتنقل بين قريتنا والعاصمة ، ويزور بيتى ثم برمت نفسه بفلاحة الارض ، فأشرف على ادارة متجر كبير فى فترات متقطعة متباعدة ، فلم اشك فيه ، ولم يخامرنى أيسر ظن سيىء فى سلوكه ، ولم يخطر على بالى لحظة واحدة انه يمكن أن يخون مبادئنا وتقاليدنا ويعبث بعقيدة الشرف العربية التى كنا نقدسها ، وينتهك عرض أقرب وأعز صديق اليه !

وهكذا تمت الخديعة الهائلة فى جو ساكن لم يعكره وجود الكسندرو ٠٠ ولو انه كان يعمل فى القرية معنا ، لو انه كان دائم الاتصال بنا، اذن لسقطت الغشاوة عن عينى، وأدركت كل شىء ٠٠٠ ولكن الرجل كان بعيدا ٠٠٠ كان بعيدا وكان قريبا ٠٠ كان غائبا وكان حاضرا ٠٠ وهذه الرسالة التى وصلت منه اليوم فقط وتقدمته ٠٠٠ هذه الرسالة التى لم تسرع زوجتى

باتلافها لفرط ما أخذتها الفرحة بعرس ابنتها . هذه الرسالة كشفت لى الساعة عن كل شيء ، وفضحت أمامى كل شيء !

فماذا أفعل الآن وكيف اتصرف ؟ !

ليس فى مقدورى أن أكون قاتلا !.. ليس فى مقدورى أن اخضب بالدم حفلة العرس !.. أأعلن الفضيحة اذن وليكن ما يكون ؟ !

أأنفصل عن امرأتى ، وأمنع هذا الزواج ، وأقوض مستقبل الفتاة البريئة المسكينة ؟!.. ولكن ماذنبها ، وكيف يطاوعنى ضميرى على أن آخذها بجريرة غيرها ؟.. انى أحبها !.. انى أعبدها !.. انها فى الواقع ابنتى أنا !.. لا .. لن أضحى بها !.. سأزوجها الليلة وأسعدها ثم انفصل بعد بضعة شهور عن أمها .. أجل . سأنفصل عن تلك المرأة الخائنة الغادرة ، ولكن بعد أن أكون الآن ، وفى هذه اللحظة نفسها ، قد انتقمت لعرضى المنتهك ، وشرفى المسلوب ! .. لن أدع الفرصة تفلت منى !.. المجرم هنا !.. فى بيتى !.. جاء ليشهد عرس ابنته !.. اذن فلأذهب اليه ، ولأمتحن أبوته ، ولأضيق عليه الخناق ، ولأتخذ من دولوريس نفسها واسطة للعقوبة وأداة للقصاص !

* * *

وتحاملت على نفسى ، وخرجت الى البهو الكبير ، فألفيت امرأتى تدخل حجرة ابنتها وتوصد الباب ، ورأيت الكسندرو واقفا بمفرده يخاطب دولوريس من خلف باب حجرتها ، ويحثها

على الظهور سريعا كي يراها في ثوبها الأبيض ويقدم لها هدية العرس عقدا رائعا من اللؤلؤ النادر الثمين ...

وكان الكسندرو مشرئب العنق الى منطلق صوت الفتاة ، يصغى الى حديثها بأذن ملهوفة ظمأى ، ويخاطبها بعبارات تفيض عذوبة ورقة ، وهو يبتسم ابتسامة ملؤها العطف والشغف والحنان ...

ولبثت أرقبه لحظة وأنا أرتعد ، ثم تمالكت نفسى وأقبلت عليه مرحبا به . فعانقنى الرجل مبتهجا مهنئا . فتملصت منه فى رفق ثم همست فى اذنه كلمة وتأبطت ذراعه ، وخرجت به الى حديقة البيت ...

***

ولما بلغنا الخميلة الصغيرة القائمة فى وسط الحديقة ، اشرت الى الكسندرو بالدخول . فأستغرب منى صمتى وجهامتى وحاجتى الملحة الى الانفراد به . فتقدمنى وجلس على المقعد الخشبى ، وجلست أنا تجاهه ولم استطع أن أتكلم ...

وفجأة استجمعت قواى ، ورفعت يدى المرتعشة ، ووضعتها على كتف الصديق الوفى ، وقلت له فى صوت غائر أجش وأنا اتفرس فيه :

ـ أتحب دولوريس حقا يا الكسندرو ؟

فتطلع الى الرجل متعجبا وغمغم :

ـ أحب دولوريس ؟! ... وهل فى هذا شك ؟

ثم هتف بالرغم منه :

ـ لن تحبها أنت نفسك أكثر منى !

فحدقت اليه وقلت له فى صوت متهدج خفيض :

– اذن لماذا تريد أن تشقيها ؟

فحملق الرجل فى مذهولا وصاح :

– أشقيها ؟٠٠٠ أنا ؟!

فأمسكت بذراعه ، وأدنيته منى ، وقلت فى نبرة حاسمة قاطعة ، وصوتى الخفيض يوشك أن يرتفع ويحتد :

– الكسندرو ، انك ستقتل دولوريس !

فانتفض الرجل وتراجع وتمتم :

– ما معنى كلامك هذا ؟

فلم امهله وعاجلته بهذه العبارات وأنا اهدر :

– ستقتلها !٠٠ نعم ستقتلها ٠٠ أنت ٠٠ أنت والدها !

فجحظت عيناه من فرط الذعر ، وحاول أن يصطنع الدهشة والتجاهل ، ثم تحرك وأراد أن ينهض ٠ ولكنى تشبثت به وأجبرته على الجلوس ، وصحت فى وجهه وأنا ابرز له الخطاب المشئوم :

– اقرأ ٠٠٠ إقرأ ما كتبت !٠٠ أليس هذا هو خطك ؟٠٠٠ ألم تخدعنى أعواما طويلة وأنا صديقك ؟٠٠٠ أليست دولوريس ابنتك ؟!٠٠٠ كيف استحل ضميرك أن يغرر بى على هذه الصورة ؟!٠٠٠ كيف أمكنك أن تخون طفولتك ونشأتك، وتتنكر لتقاليد أهلك وعشيرتك ، وتلوث عقيدة الوفاء والشرف التى ورثتها عن اسلافك ، وتمرغها فى الوحل بمحض اختيارك ورضاك ؟!٠٠ أن دولوريس ابنتك !٠٠٠ فخذها اذن !٠٠٠ انها لك !٠٠٠ خذها منذ الآن !٠٠٠ بل منذ الساعة !٠٠٠

فالعرس لن يتم والزواج لن يتم ، ودولوريس لن تحمل اسمى أبدا ، ولن تمت الى بعد اليوم بصلة !

ونهضت وأنا اختلج واردفت :

ـ سأعلن الليلة الحقيقة كلها !٠٠ سأعلنها أمام المدعوين جميعا ، ثم انفصل عن زوجتى ، وابرأ من الفتاة التى كنت أعتقد أنها ابنتى ، وأتخلى لك عن الأم والبنت ، ملوثتين بالفضيحة ، مجللتين بالعار !٠٠ تكلم ٠٠ أيروق لك هذا ؟٠٠ أتقبل أن تحطم بيدك مستقبل ابنتك ؟٠٠ ابنتك التى تعبدها ؟٠٠٠ اجبنى ، علام انتويت ، وماذا أنت فاعل ؟

فتداعى الكسندرو على المقعد منسحقا وصرخ :

ـ وأنت ماذا تريد منى ؟

فضحكت ضحكة شامتة صفراء وقلت :

ـ انت تعرف تقاليدنا ، وتعرف العقوبة التى اعتاد أن يوقعها على الزانى أهل قريتنا !٠٠٠ من حقى أن أقتلك،ولكنى لا أريد أن ألوث يدى بدمك ٠٠ ثم ان من حقى أن أسلمك الى أهل القرية يقتصون منك بأنفسهم !٠٠ أجل ، سيشدك أقواهم وأصلبهم الى جذع شجرة ، وسينهال عليك ضربا حتى تموت!٠٠ هذا هو عقاب الزانى عندنا !٠٠ ولكنى أربأ بك أن تقف هذا الموقف !٠٠ أتفهمنى ؟٠٠ لابد أن تكون شجاعا !٠٠ لابد أن تجد المخرج بنفسك !٠٠ لابد أن تؤدى ما تفرضه عليك عقيدة الشرف !٠٠ أنا مازلت واثقا فى شهامتك وقوتك واستمساكك بقدسية العرض ٠٠ وغاية ما أطلب هو أن أظفر منك بترضية لشرفى !٠٠ فاما أن أظفر بهذه الترضية واما أن أعلن الحقيقة

كلها ، واسومك العار الابدى ينصب على رأسك ورأس ابنتك !

فهب الكسندرو واقفا وصاح وهو يرتجف :

– انى أفهمك تماما !٠٠٠ أفهم ما تريد !٠٠٠ ولكنك مجنون !٠٠ هذا محض خبال !٠٠ لك أن تجهر بالفضيحة اذا شئت !٠٠٠ لن يمسنى القرويون بسوء !٠٠٠ أنا رجل ثرى ، ولقد اسديت اليهم بمالى أجل الخدم !٠٠ انظر ٠٠٠ انظر حولك ٠٠٠ من الذى أنشأ هذه الكنيسة ، وأقام هذا المستشفى ، وشيد هذه المدرسة ؟٠٠٠ ألست أنا ؟٠٠ لن يمسنى أحد بسوء !٠٠ سآخذ ابنتى ، وأرحل بها الى بلاد غير أسبانيا ، وهناك أزوجها برجل آخر وأسعدها !

فصرخت :

– اذن قل ذلك لابنتك أنت نفسك !٠٠ تشجع وصارحها بالحقيقة المروعة قبل أن أكاشفها أنا بها !٠٠٠ مزق حياتها بيدك !٠٠ اغمرها بالذل والعار !٠٠ استهدف لموتها أمام عينيك !٠٠ سأدعوها اليك على عجل !

وعدوت فى الحديقة كمعتوه ، واندفعت نحو البهو الكبير ، وصحت :

– دولوريس !٠٠ دولوريس !

فبرزت الفتاة فى ثوب عرسها الابيض ، متهللة الوجه ، باسمة الثغر ، تحف بها بنات أخى الثلاث ٠ فمشيت اليها ، واقتدتها من يدها وسرت بها صوب الخميلة ، واومأت بأصبعى الى الكسندرو وقلت :

ـ صديقنـا العزيز السنيور الكسندرو يود أن يسر اليك بكلمة يا دولوريس ··

فاختلج الرجل اختلاجا عنيفا ، ونظر الى ابنته نظرة ممزقة ، وانعقد لسانه ولم يتكلم ···

وكانت الفتاة باهرة الحسن ، شائقة الرواء ، تتألق فتنة ، وتتقد نضارة ، وتنسكب عليها السعادة كشعاع دافق خلاب · فتقدم اليها الكسندرو ، وتأملهـا ، وهم بأن يفتـح شفتيه ويتكلم ··· ولكن شيئا عاتيا ، شيئا قاهرا ، هز بدنه من الأعماق · فانتفض انتفاضة عنيفة ، وانفجرت من عينيـه الدموع ···

وبدل أن يتكلم ويصارح ، بدل أن يغامر ويفضح ، بدل أن يعذب ويشقى ·· أخذه الحب، وملكته الشفقة، وجرفه الحنان، **فدس يده فى جيبه وأخرج العقد اللؤلؤى الثمين الذى كان قد أعده هدية لابنته ثم طوق به عنق دولوريس ، وقبلهـا فى جبينها قبلة طويلة وهو يبكى ···**

ولـما كرت الفتاة راجعة الى البهو الـكبير فى صحبة بنات أخى الثلاث ، تثب مبتهجة وتضحك ، وتلوح بالعقـد الثمين مذهولة كأنها ظفرت بكنز ، التفت الى الكسندرو ، وأمسك بذراعى وهتف :

ـ اجلس ··· اجلس فترة ··· ابق قليـلا ··· يجب أن تصغى الى قبل أن تصدر حكمك النهائى على سلوكى !

وتطرح على المقعـد ، وواجهنى بعينين صريحتين متقدتين ، وشرع يقول :

ـ أتعتقد ان ضميرى لم يبكتنى ؟٠٠ أتظن انى نسيت عقيدة الشرف العربية التى كانت وما تزال شعـــار قومى وأبنـــاء جلدتى ؟٠٠ كلا ٠ ان هذه العقيدة فى دمى ٠ ولقد استيقظت فى نفسى منذ أن خدعتك وسطوت على عرضـــك ٠ فتعذبت عذابا فظيعا ، وقاسيت مر الآلام !٠٠ ولكى لا أتعذب ، لـــكى لا أتألم ، لكى أقر السكينة فى ضميرى واستريح ، ابتعدت عن امرأتك ٠٠ هجرتها ٠٠ نبذتها ٠٠ ومضيت اكد وأكدح وأبذل قصاراى لأجمع ثروة كبيرة يمكن أن تنقذنى !٠٠٠ والآن ٠٠٠ وبعد أن جمعت هذه الثروة ، وأصبحت غنيا ، عزمت أن أكفر عن جريمتى بمجموع قوى الكفاح والجهاد التى بذلتهـــا فى حياتى !٠٠٠ أجل ٠ عزمت أن أهبك ثروتى !٠٠٠ ان أهبهـــا لك أنت !٠٠٠ أتسمع ؟!٠٠٠ لك أنت !٠٠٠ ولقد اتفقت على ذلك مع مسجل العقود !٠٠٠ فتعال معى غدا اليه ، واستوف اجراءات العقـــد القـــانونية ، وتمتع بثروتى أنت وامرأتك وابنتك !٠٠٠ هذا ما اعتزمت عليه تكفيرا عن ذنبى !٠٠ فاذا راقت لك هذه الترضية ، شكرتك من أعماق نفسى وتحملت عن طيبة خاطر فقرى وبؤسى ، والا فلك مطلق الحرية فى أن توقع على أى عقاب آخر ترى انه يتناسب مع فظاعة جريمتى ؟!

فألقيت على الـــكسندرو نظرة طويلة صـــارمة ، وقطبت حاجبى ، وصحت وأنا انهض :

ـ لا يسلم الشرف بالمـــال !٠٠ وأنا وان كنت فقيرا الا انى لا يمكن أن أغسل شرفى بأن أمرغه فى بؤرة المـــال فأضاعف بذلك عارى وانحطاطى !٠٠٠ كلا ٠ لست فى حاجة الى مالك ؟

فى وسعك أن تهبه الى والديك وأقاربك ، أو ترصـــده على مشروعات البر ٠ أما أنا فايراد مزرعتى يكفينى ٠ وأما ابنتى فسيقترن بها شاب ميسور الحال ، وأما زوجتى التى كانت عشيقتك والتى لن أنتقم منها رحمة بابنتها البريئة ، فسأنفصل عنها بعد بضعة أشهر ، وعليك أنت أن تعولها وتوصى لهـا براتب شهرى مدى الحياة ! ٠٠ هذا هو المطلب المـادى الوحيد الذى أفرضه عليك ٠ أما المطلب الآخر فأنت ولاشك تفهمه !٠٠ أنت ولا شك تعرفه ! سأصمت ، وأخنق الفضيحة وأنقـذ مستقبل ابنتك ، على شرط أن تقوم أنت بواجبك وتعطينى الترضية الكاملة لشرفى !

فتهادى الرجل على نفسه ، وأطرق برأسه لحظة ثم رفـع الى بصره الزائغ ، وقال وهو يلهث :

ـ لن أخون تقاليدنا العربية ، وسأنزل على حكمك ياسيدى!

وأردف وهو يرتعش :

ـ هبنى اليوم والليلة فقط كى أرتب شئونى ثم خاطبنى صباح الغد فى الفندق الذى أنا نازل فيه !

فحدقت اليه وغمغمت :

ـ لك ذلك يا الكسندرو ٠ أنا واثق من انك لن تفر ! ٠٠ أنا واثق فى شرفك كل الثقة !

فعض على شفتيه كى لا يجهش بالبكاء ثم صرخ :

ـ احرص على دولوريس !

وخرج من الحديقة لا يلوى على شىء !

* * *

وفى صباح اليوم التالى ، خاطبت ادارة الفندق بالتليفون وطلبت أن أتصل بصديقى . فأبلغنى مدير الفندق أن السنيور الكسندرو قد انتحر منذ لحظة بأن شنق نفسه فى غرفته بسير من الجلد كان يحزم به حقائبه !

فاجعه البحـــيرة

أشعل الجـــد العجوز غليونه ، وشرع يقص مأساته على صديق له . قال :

كنت قد جاوزت السبعين من عمرى ، وقضيت حياتى فى قريتى المجاورة لمدينـــة (فلنسيا) ، وتزوجت فرزقت غلاما دعوته « جايتانو » ، تزوج هو الآخر ثم توفيت قرينته وخلفت له طفلا رائع الجمال أسميناه « أنطونيو » .

وكنت أنا ، وما زلت ، رجلا مؤمنا تقيا ، أحرص ما أكون على شرف الأسرة ، أذود عنها وأرعاها ، وأقيم من نفسى المثل الصالح لها فى المروءة والشهامة والنبل .

وكنت فخورا بسمعة أسرتى ، مزهوا بماضيهـــا النقى ، احرص على عاداتها وتقاليدها ، ولا أغفر لفرد من أفرادها أية خطيئة تمس العرض أو هفوة تتعلق بالشرف .

أما ابنى جايتانو فكان على غرارى مثلا رائعا فى العمـــل والمثابرة والجد .

ولم تكن لى ولولدى مهنة غير الصيد ، فقـــد كنا نستيقظ مع الفجر ، ونذهب من فورنا الى البحيرة الكبـــيرة ، فنصيـــد الطيور والاسماك ثم نحملها الى المدينة حيث نبيعها هناك .

وكنت أقدس تلك البحيرة ، وأرى فيهـــا مصدر وجودى ، وينبوع أفراحى ، ولا أشعر بالعظمة والسرور الا بجوارها ،

أما سعادتى فكانت فى الصيد ، وفى الصيد وحده • وكما احترف أسلافى هذه المهنة فقد احترفتها أنا أيضا عن طيب خاطر ، ووجدت فيها متعتى الوحيدة فى هذه الدنيا • وكذلك كان شعور ولدى جايتانو •

أما حفيدى انطونيو فكان على نقيضنا فى كل شىء ، نشأ يحتقر الصيد والصيادين ، ويسخر منهم ، ويهزأ بساعات العمل الطويلة التى يقضونها عند البحيرة صامتين خاشعين • وكان عابثا مستهترا كسولا ، أولع ما يكون بالتأمل الطويل ، والحلم المستمر ، ونوم الضحى ، والطعام الطيب ، والكساء الانيق ، والسعى المطرد وراء الغانيات !

شب انطونيو وفى نفسه احساس عميق بجماله يدفعه الى الاستمتاع بالحياة والاعراض عما يورث الالم والتعب والمشقات • وكأنه كان يشعر أن لجماله من الحقوق ما ليس للآخرين ، وأن الطبيعة قد حبته بنعمة خاصة ، وانه يجب أن يميز عن جده الصارم القاسى وعن أبيه العامل المجد ، وعن أهل القرية البله المساكين •

وانقضت أيام حداثته تارة فى الصيد والفلاحة فى صحبتى وصحبة والده ، وأخرى فى شوارع القرية ، يستوقف الغادات العابرات ، ويحادثهن ، ويطرى جمالهن ، ويخلب البابهن بسحر منطقه وفتنة محياه • وكن جميعا معجبات به يتسابقن الى خطب وده ، ويتبارين فى أيهن تفوز منه بنظرة أو ضحكة أو موعد غرام • وكان يتعالى عليهن ، ويسخر منهن ، ولاينزع الا الى توكيد سلطانه على الافئدة ووقع جماله فى النفوس ••

ولطالما كان يحدق الى البحيرة الكبيرة فيرى فى صقالها اللامع وجهه الصبيح وعينيه السوداوين ، وأنفه المستقيم ، وفمه الدقيق ، وشعره المهدل المجعد يكلل جبينه الناصع البياض . فكان يبتسم فرحا وغبطة ، ويروح فى شبه نشوة تشجعه على التمادى فى الكسل والاستهتار !

وكنت ألحظ عليه كل هـذا فأزجره ، وأذكره بواجبه ، واستنهض فيه - جهدى - بواعث الهمة والنشاط ، مصورا له سعادة العمل ، باعتبارها مجد الانسان وفخره وسلواه .. وكنت لا أفتأ اردد عليه ان المرأة متعة باطلة وفتنـة زائلة ، وأحبولة من حبائل الشيطان ، وان الأسرة وحدها هى الباقية بقاء العمل الخصب والبحيرة الخالدة .

ولكن أنطونيو كان يستمع الى حديثى ثم لا يلبث أن يلمح امرأة جميلة حتى ينساه ويعود الى سابق سيرته ، غير مكترث لشىء !

* * *

وكانت تسكن بجوارنا بائعة سمك لها بنت وحيدة تدعى « جرازييلا » ، بارعة الحسن ، متوقدة الذكاء ، يشوب جمالها الخبث والمكر . هـذه الفتاة هى التى استطاعت أن تستولى على قلب انطونيو ، وتزهو على أترابها بمن اصطفاه قلبها حبيبا لها ، وكانت فقيرة تشتغل كأمها بائعة سمك ، ولكن غريزة الطموح وشهوة الترف وحب المـال والثراء ، كل هذه العوامل كانت تكمن فى نفسها ، وتغفو فى أعماق قلبها ، وتولد فيها ميلا ظاهرا الى اللؤم والخسة والجسارة والكبرياء .

وكانت أشبه بدمية فاتنة منها بفتاة بائسة ، مديدة القامة ، ناهدة الصدر ، سوداء الشعر ، ناصعة البشرة ، تسير بخطى لينة وئيدة ، فيتماوج بدنها الغض ويتلوى ، فينخلع أنطونيو ويرتجف ، ويعجب ويبهت ، كأنما هو أمام حية تسعى .

ولم يكن أحب الى جرازييلا من الخروج الى النزهة فى صحبة أنطونيو ، تتأبط ذراعه ضاحكة عابثة ، وتتلفت ذات اليمين وذات اليسار ، علها ترى بعض نساء القرية فتكيدهن بفوزها ، وتشهدهن على نصرها العظيم .

والحق ان انطونيو كان يحبها ويخاف منها ، وكان من فرط حبه لها يشعر بسلطانها الشديد عليه ، فيغالب نفسه ما استطاع ويعرض عنها ، فتعرض هى الاخرى بدورها ثم تعود اليه آخر الامر ذليلة ، صاغرة ، مسترحمة !

وأحس الفتى اذ ذاك انها خطر عليه ، وانه قد يضعف فجأة فيضطر الى التزوج من بائعة سمك ، فحاول أن يقصيها عنه جهده ، ولكنها تشبثت به ، ولجت فى حبه ، فثار ثائره على نفسه ، واعتزم ألا يراها ، وألا يمكث فى القرية لحظة واحدة بجوارها .

واستهولت منه جرازييلا هذا التحول ، فطفقت تغمره بعطفها وحنانها ، وتستدرجه بخبثها ولؤمها ، وتستحلفه بكل عزيز لديه أن يقدر عاطفتها ولا يبتليها بالحسرة واليأس والخيبة العميقة المرة .

ولكن انطونيو سايرها فترة ، ثم راوغها ، ثم صد عنها ولم يحفل بها .

وكان يعشق الحرية أكثر من كل شيء في هذه الدنيا ، فكبر عليه وهو لما يزل في مقتبل العمر أن يجود بشبابه رخيصا من أجل فتاة وضيعة بائسة . فانطوى على نفسه ، واستوحش وبات ينفر من الفتاة ، ويكره القرية ، وينظر الى أهلها نظرة السأم والضجر ، ويتطلع بعين فكره وقلبه الى آفاق بعيدة مترامية يمكن أن تشبع روح المغامرة التى كانت مستولية عليه .

وأراد أن يجدد حياته ، ويمتحن قواه ، ويجرب حظه فى عالم غريب مجهول ، فصارحنى وصارح والده ثم صارح جرازييلا نفسها بعزمه القاطع على الالتحاق بخدمة الجيش فى المستعمرات . فاغتبط والده بهذا العزم ، وكذلك ابتهجت أنا ، أما جرازييلا فقد ذعرت واختبلت وأعولت ، ولكن الشاب — وقد تمكنت منه نزعة الحرية واستبدت به روح المغامرة — لم يأبه للفتاة ، وودعنا جميعا ورحل .

رحل أنطونيو ولكن صورة جرازييلا كانت ماثلة فى خياله ، وحبها الشديد كان يطارده ، وصرخاتها كانت ماتفتأ تدوى فى أذنه وتشيع فى نفسه الأسف والحسرة على ذلك الحب الأول العميق الذى لم يشأ له القدر أن يعيش ويزدهر ..

* * *

وأفاقت الفتاة من غشيتها ، وأدركت حقيقة الامر . أيقنت انها لو كانت غنية ما أعرض أنطونيو عنها وما قاست كل هذه الآلام . فارتدت اليها غرائزها القديمة ، واستحوذت عليها الرغبة فى المال والترف ، فثارت على حياة البؤس ، وأنفت

بيع السمك ، وأجالت طرفها فى حسان القرية فألفت نفسها أجملهن وأفتنهن ، فعز عليها أن تقضى العمر بائسة مشردة ، ففكرت فى احتراف مهنة أخرى . وأسرعت فطرقت باب العم « أوسكار » .

وكان هذا الرجل كهلا ثريا ، صاحب فندق مشهور، توفيت امرأته منذ أعوام ، فجف خلقه وغلظ طبعه ، وأصبح فى القرية كلها مضرب المثل فى القسوة والأنانية والغطرسة والكبر .

ذهبت اليه جرازييلا وعرضت عليه أن تعمل فى فندقه ، فقبل وعينها صرافه وخادمة .

ورأت الفتاة بعين بصيرتها ان المجال فسيح أمامها ، وأن الكهل أحمق وغبى ، وانها قد تصبح فى بيته يوما صاحبة الامر والنهى .. فبذلت قصاراها لاستجلاب الزبائن ومرضاتهم، وأفرغت عصارة قواها فى استمالة الكهل ، والتودد اليه ، وحراسة ماله . فأعجب بها واطمأن اليها ، وسلمها مقاليد فندقه . وكانت تعيش فى جناح خاص من منزل العم أوسكار، تأكل هناك وتنام ، ولا تفكر الا فى تحقيق آمالها الكبار . وساعدتها على ذلك شخصية الكهل ، فقد كان طماعا بخيلا ، فكانت تقتصد له ، وتقتر جهدها فى نفقات الفندق ، فازداد الدخل ، ففرح العم أوسكار وبات يرى فى جرازييلا مثال المرأة العاقلة الرشيدة الحازمة !

ولم يكن ليلحظ كل هذا ويفهم الخطة المدبرة سوى مدام « يولندا » شقيقة زوجة الكهل المتوفاة . وكانت هذه المرأة قبيحة الصورة ، شديدة الغيرة ، واسعة المطامع ، نمامة

واشية ، تعلل نفسها باحتلال مركز أختها ، والسيطرة على العم أوسكار ، والاستيلاء على ثروته والاقتران به فى يوم من الايام .

ونشب الصراع بين المرأتين . فكانت يولندا تتهم الفتاة بالخبث والطمع والتهتك ، وكانت جرازييلا ترميها بنفس التهم ، وكان العم أوسكار حائرا بينهما مسلوب الحول مفقود الارادة ، لا يستطيع أن يسلم بسوء نية الفتاة وهو يرى بعينى رأسه أن وجودها يدر عليه الذهب انهارا .

واستحكمت صلة المودة بين الكهل وجرازييلا . فلما أحست انه ركن اليها ووثق فيها ، أقبلت عليه فجأة ، وافتنت فى أغوائه ، وراحت تجود عليه ببعض النظرات والدعابات والقبلات ، فاستيقظ فى الكهل وهم الشباب ، فشغف بها ، وعرض عليها الزواج ، وتم الزواج بالفعل ، فوقع النبأ على يولندا وقع الصاعقة . أما فتيان القرية فقد عجبوا لجرازييلا كيف استطاعت أن تصرع غريمتها بمثل هذه السهولة ، وأن تفوز بالمال والسلطان وتحقق فى مثل ومض الطرف جميع أحلامها .

واشتدت وطأة داء المفاصل على الزوج الكهل . فكانت جرازييلا تخدمه وتسهر عليه ، كأنها حقا تحبه ، وكأنها تخشى عليه الموت ، وتخاف العزلة والتبتل من بعده ...

وقرت نفس الكهل بعواطف الطيبة والرحمة والاخلاص ، تسكبها فى فؤاده هذه الحسناء الصبية التى أنسته قرينته الاولى . فجن حبا بها ، وأسلس لها قياده ، وبات لا يحرمها شيئا ولا يعصيها فى أى شىء ...

وفى ذات يوم دخلت الفندق امرأة من نساء القرية وأعلنت جرازييلا بمقدم أنطونيو !

اضطربت المرأة بالرغم منها ، وعلا محياها الاصفرار ، ثم أشاحت بوجهها لحظة ، وصرفت القروية ، واعتمدت رأسها بيدها ، وأخذت تفكر ...

خامرها احساس عجيب بالفرح . أحست كأن قلبها الخاوى يمتلىء شيئا فشيئا ويفيض . أحست كأن أحلامها القديمة تنبثق من أعماق خيالها ، وتمر أمام ناظريها ، وتملك عليها مشاعرها ، وتحيلها عذراء كما كانت أيام البؤس والهوى ...

وتطلعت الى المرآة ملهوفة فشاهدت وجها ما يزال غضا ، وبدنا ما يزال ناضرا ، وخدا ما يزال موردا متألقا ، فشاع الامل فى كيانها ، وارتعدت من فرط الفرح من قمة رأسها الى أخمص قدميها .

وزهاها الامل وانعشها ، فتجملت وتعطرت ، وألقت على كتفيها وشاحا من حرير ، ونزلت الى بهو الفندق تتخطر وتتهادى .

وما أن وطئت قدماها عتبة البهو حتى جمدت بغتة وانعقد لسانها ... رأت حبيبها القديم انطونيو مقبلا نحوها ، ضاحك السن ، منبسط اليد ، وقد انسكب عليه جمال جديد لم تكن لتحلم به أبدا ... كان قد ازداد رجولة ، وازداد ثباتا ، وازداد عزة وكبرا وثقة ، فتقدمت اليه على مهل ، وصافحته ويدها ترتعش ، وبصرها مثبت فيه ، أظمأ ما يكون الى التملى من فتنة محاسنه .

وجاذبها أطراف الحديث ، وقص عليها بعض نوادر المعسكر، واشاد ببطولته فى المستعمرات ، فظلت تستمع اليه وقلبها يخفق ، وبدنها يختلج ...

وشعر الشاب ان جمالها قد أزهر واكتمل ونضج ، فنسى نفسه ، وظل بقربها ساعة كاملة ، مأخوذا بها ، مفتونا بروعة جمالها وسحر حديثها ..

وفجأة فتح الباب ودخل العم أوسكار .. فأجفلت جرازييلا وتراجعت . أما أنطونيو فأقبل على الكهل ، وحياه أحسن تحية ، وطارحه النكات ، وصارحه بأنه قد حن الى الصيد ، وانه ما جاء الى هنا الا ليتفق معه على العمل سويا ... ودهش العم أوسكار ، واستوضح الشاب جلية الأمر ، فقال أنطونيو انه مستعد للعمل لو أمده الكهل بالمال اللازم لابتياع القوارب والشباك ، على أن يكون الربح مناصفة بينهما ...

وفكر الزوج لحظة ، وتمثل المشروع الجديد ، وأرباحه الكبيرة ، وقوة هذا الشاب المغامر الجرىء ، فالتفت الى امرأته يسألها رأيها ، فأيدت الفكرة ، وشجعت عليها زوجها . فقبل الكهل وتعهد بدفع المال اللازم لشراء القوارب والشباك ...

ولم يكد يمضى أسبوع واحد حتى بدأ انطونيو يباشر مهنته ...

وفرح أهل القرية بمقدمه ، وهنأوا العم أوسكار على حسن اختياره ، وتنبأوا له بنجاح عظيم . أما انطونيو فقد الف التردد على الفندق ، ومقابلة جرازييلا ، والسهر فى صحبتها ، واحتساء الخمر من يدها الكريمة البضة الناعمة ...

وكان يغافل الزبائن ويغازلها ، ويغافل الزوج ويطارحها الغرام . أما هى فكانت تروغ منه ، وتتمنع عليه ، وتخشى ان هى استسلمت له أن يفتضح أمرها ، فيطلقها زوجها أو يحرمها من نصيبها فى ماله ، فتفقد الثروة التى كافحت كفاحا شاقا مريرا فى سبيل الاستيلاء عليها ... ولكنها كانت تحب انطونيو ، ولا تطيق فراقه ، وتتخبط تخبطا مروعا بين دعوة الحب وشعور الخوف . فقام فى نفسها لحظة أن تغامر بكل شىء وتدمر كل شىء . بيد انها صبرت واحتملت ، وجعلت تتحين الفرص لاسعاد حبيبها وامتاعه بما يشتهى ....

وكانت مدام يولندا لا تنفك تراقبها ، وتحوم حولها ، وتعكر عليها صفو حبها ، وتصب فى أذن الكهل سم النميمة والغيرة ، ولكن جرازيلا لم تحفل بها . وأمعنت فى استرضاء الكهل ، وارقاد وساوسه ، واخماد شكوكه ، كما أمعنت بالرغم منها فى حب انطونيو والتهافت عليه ...

وفى ذات صباح ، وقد امضتها العزلة ، وبرحت بها اللهفة ، وانفت نفسها قرب الكهل المريض ، انسلت من فراشها ، وارتدت معطفها ، وانبأت زوجها انها ستخرج اليوم الى الصيد فى صحبة أنطونيو ، كى تستوثق بنفسها مما اذا كان حقا أمينا لهم مخلصا فى عمله كما يزعم ..

والتقت بالشاب ، فما أن رآها حتى هتف من أعماق نفسه مرحبا بها . ولكنها غافلته وهبطت الى القارب ، وطفقت تضحك وتقهقه ، ويدها البضة الناعمة تعبث بماء البحيرة البارد الشفاف ....

وحملهما التيار ... وكان الجو صحوا ، والنسيم عليلا ، وانغام العصافير تتصاعد فى الفضـاء ، وضحكات المرأة ترن وتتعالى ، والقارب يشق عباب المـاء . فلم يكن اليوم يوم عمل بل كان يوم غرام ، فعاد انطونيو الى الكهل صفـر اليدين ، فاعتذرت عنه جرازييلا ، واقنعت زوجها أن الشاب قـد خانه الحظ ، وانه يرعى مصلحة شريكه حق الرعاية ..

وكانت هذه النزهة المشئومة سبيل التهلكة !

ختم الهوى على بصر جرازييلا ، فاستسلمت لحبها قريرة منتشية غير حافلة ، حتى وقع الحادث المروع الذى كشف عن دخيلة نفسها ، واماط اللثام عن وحشيتها المتأصلة. ووضعنى أنا ، أنا الشيخ المؤمن الورع التقى ، تجاه موقف هائل فظيع لم يكن فى وسعى أن أتصوره ، ولم يكن ليخطر لى أبدا على بال !

وكان ذلك فى ليلة من ليـالى الشـتاء ، ملبدة بالسحب ، تنذر بالعاصفة ، وكنت قد أويت الى فراشى فى الطابق الاعلى من بيتنا ، وكان ولدى جايتانو قد سافر الى المدينة ليبتـاع بعض شباك الصيد ، وكان حفيدى انطونيو قد أوى هو الآخر الى فراشه فى الطابق الاول ، واستغرق فى النوم ، وجعـل يغط غطيطا مزعجا .

وفيما كنت اتوجه الى الله بصلاتى التى اعتدت أن أتلوهـا قبل النوم ، أبصرت من خلال قضبان نافذة مخدعى ، شبحـا يعدو فى الظلام متجها صوب بيتنا . فنهضت مسرعا ، وفتحت الباب ، وحدقت فى الظلمة جهدى ، واذا بى أرى نفسى أمام

يولندا وجها لوجه !

أشارت الى بالصمت ثم اقتحمت مخدعى ودنت منى فجأة ووجهها الدميم يتقبض تقبضا مخيفا كأن لعنة القدر قد ارتسمت عليـــه ، ثم همست فى أذنى وهى ترتعش : « أتعرف لمـــاذا غادرت جرازييلا بيت زوجهـــا منذ أسبوع ولجأت الى منزل أمها ؟ »

فغمغمت : « لعل أمها كانت مريضة وفى حاجة اليها ٠٠ »

فصاحت مدام يولندا وعيناها تقدحان الشرر : « كلا ٠٠٠ ان جرازييلا كانت حاملا ! ٠٠ أتفهم ؟ ٠٠ كانت حاملا ! ٠٠ وقد ذهبت الى منزل أمها لتخفى الفضيحة وتضع الطفل ! »

فأومض عقلى بغتة ، وسرت فى بدنى رعدة كرعدة الحمى ، فأمسكت المرأة من ذراعها ، وطفقت أهزها هزا عنيفا وأقول : « ولكن العم أوسكار شيخ مهدم ، ومن المحال أن يكون هــو والد الطفل ! ٠٠٠ يجب أن ٠٠٠ »

فقاطعتنى المرأة وقالت فى صوت يشبه فحيح الأفعى : « ان والد الطفل هو حفيدك انطونيو ! ٠٠٠ »

ثم طوقتنى بذراعها ، وقربت الى وجهها النابض بلذة النميمة والحقـد ، وصبت فى أذنى هـذه العبارات : « لقـد عادت جرازييلا ! ٠٠ عادت الليلة من منزل أمها ٠٠ ولكنها بدل أن تذهب الى بيت زوجها تحولت الى هنا ٠٠ الى بيتك انت ! ٠٠ ولقد لمحتها اتفاقا وهى تودع أمها ، فطفقت أعدو لاصل اليك قبلها ! ٠٠٠ انها الآن فى طريقها الى هنا ! ٠٠ انها تريد أن

ترى انطونيو ! ٠٠ انها تحمل اليه الطفل ! ٠٠ »

فجحظت عيناى دهشة وذعرا ، وجرفتنى موجة طاغية من الاستنكار والسخط ٠ ولبثت واجما ، انصت الى المرأة وأنا ألهث ، وهى تسرد على قصة هذا الغرام الفاجع بكل تفاصيلها وجزئياتهـــا ٠

وفجأة ، وبينما هى تتكلم ، حانت منى التفـاتة ، فرأيت أغصان الشجرة الصغيرة المجاورة لبيتنا تضطرب وتتماوج ، ثم تنفرج فى بطء وتبرز من خلالها ٠٠ جرازييلا !

لم أتردد وأسرعت فأوصدت باب مخدعى ٠ ولمـا أبصرت جرازييلا تدخـــل الطابق الأول ، وسمعت همهمـة طويلة ، وأيقنت أن حفيدى أنطونيو قد استفاق ، فتحت باب المخدع ، وسرت بخطى وئيدة ومدام يولندا تتبعنى ٠ ووقفنا معا على رأس السلم فى الظلام الدامس ، نرهف السمع ، وننصت فى لهفة وقلق ورعب الى حديث العاشقين ٠٠٠

قالت جرازييلا وصوتها الغائر الأجشر يرن فى ســـكون الليـــل : « هـــذا هو ابنك يا أنطونيـــو ! ٠ ٠ ٠ ليس فى مقـــدورى أن أحتفـــظ به ! ٠ ٠ ٠ لـــو أعلنت فى المـــلأ عـــارى فســـيطلقنى ولا ريب زوجى ، وأنا لا أريد أن أتشرد يا أنطونيو ولا أريد أن أموت ٠٠٠ كل ثروة زوجى ستئول فى النهاية الى ٠٠ كل ذلك المـــال سيصبح فى النهاية لنا !٠٠ ولكن واجبنا الآن هو أن نتشجع ٠٠ أن نقدم ٠٠ أن نغـــامر ٠٠أن نتخلص من هذا الطفل !٠٠٠ هو ذاك !٠٠ لقد تحملت بجوار ذلك الزوج المهدم شر ألوان العذاب ، فأنا لا أريد أن

تذهب تضحياتى سدى ، لا أريد أن أفقد الثروة ، لاأريد أن أفقد النعيم ٠٠ **فخذ الطفل يا أنطونيو ، خذه وتخلص منه ثم اصبر معى فترة أخرى ٠٠ ومتى توفى زوجى ، أصبح المال لنا ، وأصبح فى وسعنا أن نتزوج وأن نعيش مطمئنين وسعداء !** »

فوثب الشاب بها ، وكشف عن وجه الطفل الذى كانت تحمله بين ذراعيها ، وصاح : « ولدى !٠٠ انه ولدى !٠٠ كيف يمكن أن أتخلى عنه وهو ثمرة حبى ؟!٠٠ محال !٠٠ اذا كنت حقا تحبيننى فيجب أن تتبعينى !٠٠ سنفر من هنا أنا وأنت والطفل ! »

فأرسلت جرازييلا ضحكة مكمدة صفراء وهتفت : « والى أين ، الى أين أتبعك أيها الصعلوك ؟٠٠ أنسيت أنك فقير ، وأنك تعيش بفضلى ، ومن مال قرينى ، وانك لولاى ولولا سلطانى على زوجى ما وجدت فى هذه القرية كسرة خبز ؟ ٠٠ ماذا تستطيع أن تفعل ، وأية مهنة غير الصيد يمكنك أن تحذق ؟ ٠٠ أنت جاهل وخامل وأفاق ! ٠٠ ومع ذلك فأنا أحبك ، أعبدك ، وأريد أن أجعلك سعيدا . **فاستمع لنصحى واصدع بأمرى ، وتخلص من الطفل الى الأبد والا فقدتنى !٠٠ اما حياة ولدك واما حياتى !٠٠ اما أن يموت ولدك واما أن أموت أنا ! ٠٠ فاختر بيننا الآن وتكلم ٠٠ واذا آثرت طفلك على ، أنقذتك منى على الفور ، وقضيت على نفسى بنفسى !** »

واستلت خنجرا كانت قد أخفته فى صدرها ، ولوحت به فى وجه الشاب ٠٠ فتطلع اليها مبهوتا وارتجف ، فارتمت عليه ،

واحتضنته ، وقالت له وهى تغمر وجهه بالقبلات : « أذكر حبنا ، واذكر المستقبل الرائع الذى ينتظرنا ، ولا تضح بنا فى سبيل كتلة من اللحم شوهاء عمياء لم تخرج بعد الى نور الدنيا ! »

ومالت اليه أيضا بفمها ، فانتفض وصدها ٠ ولكنها تمكنت منه جاهدة ، وجذبته اليها عنوة ، وطبعت على فمه قبلة طويلة محمومة ، ثارت لها أعصابه ، وانهد عزمه ، وتداعت قواه ٠ فهوى على فراشه منسحقا ، وطمر وجهه بين راحتيه ، وغمغم وهو كالتائه : « وأى طريق أسلك ، كيف أتصرف ، وما هى خير وسيلة ؟ »

فضمته الى صدرها فى حنان ، وقالت فى هدوء وهى تتفرس فيه : « سأترك لك الطفل ، فابق لحظة هنا ريثما أصل الى بيتى ، ثم أخرج قبل أن يستفيق جدك ٠٠ أخرج تحت جنح الظلام ، واذهب الى البحيرة ، والق بالطفل فى أعماقها ! »

فرفع اليها الشاب رأسه ، فألفاها تتأمله فى شغف ، وتقدم اليه فمها الناتىء الشهى ، فانهال على الفم القاسى ليتشجع وينسى ، انهال عليه تقبيلا عنيفا متداركا مخبولا ، وتمتم : « أتركى الطفل وانصرفى !٠٠ سأكون طوع أمرك فى كل شىء !٠٠ اذهبى !٠٠ »

فهتفت : « أحبك ! »

ثم عانقته عناقا حارا ٠ ومدت الطفل البرىء على الفراش ، ودفعت الباب وخرجت ، دون أن تودع ابنها الوحيد بقبلة !

* * *

وعندئذ التفت أنا الى مدام يولندا وقلت لها والدم يغلى فى عروقى ، وقلبى يكاد ينخلع : « مكانك لا تتحركى !٠٠ اياك أن تشعرى أنطونيـــو بأنك هنـا !٠٠ سأصـعد اليك بعـد قليل ٠ »

وهبطت الدرج مسرعا ، ودخلت حجرة أنطونيو ، فرأيته يهم بحمل الطفل ويتهيأ للخروج ٠ فبسطت ذراعى قاطعا عليه السبيل ، وصحت به : « الى أين أنت ذاهب ؟ »

فأجفـل الشـاب وارتد ٠ فاستطردت صـارخا : « لن تذهب !٠٠ أنا جدك وعميد أسرتك أقول لك ، لن تذهب ، ولن تقترف تلك الجريمة المروعة !٠٠ لقد سمعت ما دار بينك وبين تلك الفاجرة ، ومن المحال أن أدعك تذهب !٠٠ من المحال أن أدعك تقتل ولدك ! »

وانقضضت عليه وحاولت انتزاع الطفل منه ٠ ولكنه تراجع وتحفز وهو يهدر ، ثم غافلنى ورفع قبضته ولطمنى على رأسى لطمة أذهلتنى ، وأطاشت صوابى ، فترنحت متهاويا على نفسى ، وسقطت على الأرض مغشيا على ٠

ولما أفقت أبصرت مدام يولندا بجوارى ، تهدىء من روعى وتحاول أن تسعفنى ٠ فصحت بها على الفور : «أين أنطونيو؟»

فغمغمت : « لقد ذهب ! »

فصرخت : « ذهب الى البحيرة ولا شك !٠٠ قتل ولده !٠٠ لابد أن يكون قد قتل ولده ! »

ودفعتها نحو الباب ، وأردفت وقد اندلعت عيناى وتصلبت

عضلاتى ، واحتوتنى ارادة جبارة لم أشعر بها عمرى : « امضى الى بيتك مشكورة يا سيدتى وانتظرى ٠٠ أتوسل اليك أن تكتمى السر يوما واحدا فقط وتصمتى ٠٠ سأتولى أنا كل شىء بنفسى ٠ وسأعرف كيف أكون شجاعا ، وكيف أؤدى واجبى ! »

فأذعنت مدام يولندا وانصرفت ٠ وبقيت أنا فى البيت وحدى ، ألتقط أنفاسى ، وأستعيد قوتى ، وأنعم النظر فى مصيرى ٠٠ وأتهيأ لتمثيل الدور الفظيع الذى رسمته لنفسى ٠

وقبل أن يبزغ الفجر دخل أنطونيو ، ملتمع العينين ، غائر الوجنتين ، مكفهر السحنة ٠ فما أن رآنى حتى أقبل على كوحش كاسر ، وقال وهو يرفع قبضته مرة ثانية ويهددنى : « الويل لك أيها العجوز لو تكلمت ! »

فابتسمت له ابتسامة صفح وغفران ، حاولت أن أودع فيها كل عواطف المحبة والشفقة التى يمكن أن تبعث الطمأنينة والثقة فى النفس ، وقلت : « **أنت حفيدى ، ودمك من دمى ، ولم يكن مستغربا منى أن أخاف عليك ، وأحاول أن أجنبك اقتراف جريمة قد تودى بمستقبلك وحياتك !٠٠ أما الآن ــ وقد قتلت ــ فمن واجبى أن أحميك ، ومن واجبى أن أنقذك!٠٠ فاهدأ ولا ترتعد ، وأجبنى ٠٠ كيف قتلت ؟** »

فندت عن الشاب زفرة ، ثم قال وهو يطرق برأسه : « ألقيت الطفل فى البحيرة ، ولكنى نسيت أن أربط جسمه بحجر ! »

فتنفست أنا ملء رئتى وقلت : « لا بأس عليك من هذا ٠٠ ولو حدث وطفت الجثة على وجه البحيرة ، فلن يعرفها فى القرية انسان ! »

وسكنت من روعه ، وطيبت خاطره ،واستطردت وأنا أومىء باصبعى الى احدى النوافذ : « أنظر ٠٠ لقد طلع النهار وأشرقت الشمس ٠٠ يجب أن نذهب الى البحيرة كالعادة !٠٠ ويجب ٠٠ أتفهم ؟ ٠٠ يجب أن ندعو العم أوسكار وزوجته الى مشاهدة الصيد توكيدا لنزاهتنا ، واثباتا لبراءتنا ، وقطعا لدابر كل شبهة يمكن أن تتطرق الينا !٠٠ فاحمل شباكك وانهض وسأرافقك ٠٠ ولعلك تصيد أسماكا كبيرة ، وأصيد أنا طيورا نادرة ٠٠ هيا انهض ٠٠ »

وأعجبته فكرتى واطمأن اليها ، فنهض وجاء بشبكته ٠ وأسرعت أنا فحملت بندقيتى المليئة بالرصاص ، وأيقظت كلب الصيد ، وأشرت اليه أن يتبعنى ، ثم مضينا جميعا نحث الخطى متجهين صوب منزل العم أوسكار ٠

* * *

وأبرق محيا جرازييلا ، وأدركت أن كل شىء قد تم ٠ فهللت لمقدمنا ، ورحبت بنا ، والتمست الى زوجها أن يرافقنا ٠ فخرجنا الى البحيرة نسمر ونعبث ، والمرأة ذات القلب الحجرى تضاحكنا ، وبهجتها الغامرة تدفعنا ، وروحها المرحة تجلجل حولنا كأنها لم تكن بالأمس القريب روح ابليس الرجيم تقمصها بدن امرأة !

وكان الجو رطبا ، والنسيم نديا ، والبحيرة لامعة كمرآة كبيرة ، تتجاوب فيها وتنعكس على صقالها أشعات الشمس .. فتقدم أنطونيو ونشر شبكته ، وألقى بها فى الماء مبتسما لجرازييلا ، متيمنا بذكر اسمها . ومضيت أنا أتأمل البحيرة، وأنقل بصرى فى جوانبها البعيدة ، عساى أن ألمح فى ثناياها شيئا يضطرب ويتقلب ، ويمكن أن يطفو على سطح الماء .. ولكنى لم أر شيئا ، فرفعت بصرى الى السماء مغيظا محنقا ، فأخذت عيناى بعض الطيور العابرة ، فسددت اليها سلاحى وأطلقت النار . فسقط فى البحيرة طائر منها ، سرعان ماهبط الكلب الى الماء فى أثره والتقطه وجاءنى به ..

وأحسست أن هذا ليس هو المكان الذى أنشده ، فتحولت من فورى الى طرف البحيرة المجاور لبيتى ، والذى قدرت أن أنطونيو لابد أن يكون قد اتجه فى الليلة الماضية اليه ..

ووقفت على طرف البحيرة وقلبى يخفق ، ولمحت أنطونيو ينظر الى مستغربا وهو يرتعش ، فلم أحفل به .. وفجأة عبر السماء طير أبيض ، ضخم الرأس كبير الجناحين ، فاتبعته بصرى ، واستجمعت قوتى وأطلقت عليه النار ..

وهوى الطائر فى البحيرة يصرخ ويختلج .. فقفز الكلب فى أثره ، وهبط البحيرة وهو يعوى عواء متواصلا مزعجا .

ولكنه بدل أن يعود بالطائر ، عاد وبين أسنانه كتلة صغيرة من اللحم شوهاء منتفخة يقطر منها الماء !

وأثلج صدرى نجاح خطتى ، فارتميت على الكلب وأنا أهذر،

وانتزعت من بين أسنانه كتلة اللحم ٠٠ وما أن حدقت اليها وتأملتها حتى ازداد يقينى ، وعرفت فيها جثة الطفل البرىء المقتول ٠٠ فألقيت بسلاحى على كتفى ، وحملت الجثـــة بين ذراعى ، وانطلقت أعدو بها ، وشعور النصر يحفزنى ، وشهوة العقاب وتوكيد العـدل يملآن نفسى ، حتى وصلت الى حيث كان يجلس العم أوسكار ٠٠ فدفعت اليه بالجثة وصحت : « هذه جثة طفل !٠٠ طفـل برىء مسكين ! أتعرف من الذى قتله ؟٠٠ أتعرف من هو هذا الطفل ! »

وقبل أن يتحرك أنطونيو ، الذى كان قد صعق وجمـد ، وقبل أن تصرخ جرازيبلا التى كانت مفغورة الفم كبلهـاء ، تنظر الى بعينين زائغتين وترتجف ، **اردفت أنا فى صيحـة مدوية ، مشيرا الى المرأة الفاجرة الزانية : « ان هذا الطفـل هو ابن زوجتك ! ٠٠ هو ابن جرازيبلا !٠٠ هو ابنها من عشيقها أنطونيو صديقك وشريكك وحفيدى !٠٠ »**

ومضيت أقص على الزوج ما وقع وأنا أردد : « سأقول كل شىء ! ٠٠ سأعترف بكل شىء !٠٠ ولابد أن يقتص القضاء من المجرم ! ٠٠ »

وعندئذ تحرك أنطونيو ، وارتمى على كطود شـامخ هز قاعدته زلزال ، فتلقيته بصدرى ثم حاولت أن أدفعه بكتفى وقبضتى ٠٠ ولكنه أحـدق بى ، وطوقنى ، وتمكن منى ، وامتدت يده الغليظة فجأة الى عنقى وهمت بأن تخنقنى ٠

وفى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة الفاصلة ، ومن خـلال

صيحات الزوج الذى هب لنجدتى ، وصرخات جرازيبلا ، التى كانت هى الأخرى تذود عنى ، لا شفقة على ، بل خوفا من تهور حبيبها ، رأيت رأى العين واجبى ، فالتهب عزمى ، واتقدت قوتى ، واستحال كل عضل فى جسمى الى شبه مطرقة من حديد ، فهويت بجمع بدنى على أنطونيو ، وعضضت أصابعه حتى انفرجت عن عنقى ، ثم دفعته بكلتا يدى جاهدا ، فارتد حانقا وهو يزمجر ، ثم عاد فكر على · فاستنكرت وقاحته واجرامه ، وسددت اليه بندقيتى وأطلقت النار !

أطلقت النار وأنا ثابت أعرف ما أفعل ، فترنح الشاب لحظة وتهاوى ، ثم خر على الأرض مضرجا بدمه ·

وما كادت جرازيبلا تبصره أمامها صريعا يئن ويتلوى ، ويتخبط فى التراب تخبط طائر مذبوح ، حتى تاه فكرها ، وثارت ثورتها ، فنسيت نفسها ، ونسيت زوجها ، وارتمت على جثة الشاب ، صارخة من أعماق يأسها وهى تقبله وتغمر وجهه بالدموع : « حبيبى أنطونيو !·· مات !·· قتل !·· مات حبيبى ومات ولدى ! »

ونهضت مسلوبة العقل ، مفقودة اللب ·· وجعلت تلطم وجهها ، وتمزق ثوبها ، وتحثو التراب على رأسها ، وتصرخ وتضحك وتهذى ، وزوجها الصامت الهادىء المتأمل ، ينظر اليها نظرات هائلة ملؤها الكراهية والحقد والتشفى !

* * *

وتمهل الشيخ فترة ثم أرسل نفسا عميقـا واستطرد : « وهكذا قتلت حفيدى ، وعوقبت على جريمتى بالسجن ثلاث سنوات . ومع ذلك فأنا سعيد . سعيد لأنى ذدت عن كرامتى، واحتفظت بشرف أسرتى ، وثأرت للعـدل والحق ، وعشت حتى اليوم لأرى بعينى رأسى كيف عوقبت الزانية ذات القلب الحجرى جرازييلا ، وكيف حرمها زوجها من ثروته ، ففقدت كل شىء : الزوج ، والمال ، والحبيب ، والولد !.. فانهارت قواها وتحطمت أعصابها ، وحملت الى مستشفى المجـاذيب بعد أن افترس عقلها الجنون !

مصارع الثيران

كان الليل حالكا فى تلك الضاحية النائيـــة من ضواحى (غرناطة) ، وكان مصارعو الثيران قد أووا الى مضاجعهـــم يستريحون من عناء الجهد الذى بذلوه فى تلك الحفلة .

وكانوا قد اختاروا تلك الضاحية موئلا لهم ، يعيشـــون فيها ، ويتمرنون فى فسحاتها ، ثم يخرجون منها الى المدينة وقد تصلبت عضلاتهم ، واشتدت عزائمهم ، وأيقظت فيهـم متعة الراحة البدنية ومتعة المران اليومى قوة عظيمة متأهبـة لكل صراع جديد ..

ففى تلك الليلة الساكنة المكفهرة كان الحر شـديدا يأخذ بالمخانق ، وكانت معظم النوافذ والشرفات مفتوحـة ، وكان الجو مقبضا ..

وفجأة ، وفى غمرة هذا السكون الفاتر ، انسلت الحسناء « دولوريس » من خلف جدار بيت متداع خرب ، وهمست فى أذن شاب كان يتبعهـــا بخطى وئيدة حذرة : « اياكِ أن تذهب من طريق الميدان ! انطلق من هنا ! ثم تحول صـــوب الزقاق الضيق ثم أسرع الى بيتك ! »

واستدارت وهى ترتعد ، وعانقت الشـــاب فى لهفة ، ثم دفعته الى الأمام وقلبها يخفق فى صدرها ..

ولم تلبث أن تراجعت واختفت خلف الجدار ، بينما انطلق الشاب يشق عباب الظلام ويتلمس الطريق !

وظلت المرأة تنبش الظلمة بعينيها المتقدتين ، وتتبع الشاب النظر ، حتى بلغ مدخل الزقاق وكاد يختفى ..

وعندئذ ، وقبل أن يغيب طيفه فى المنعرج البعيد ، دوى فى هدأة الليل طلق نارى ، فتطوح الشاب وصرخ ، ثم سقط على الأرض !

وانخلع قلب دولوريس فاستندت الى الجدار جاحظة العينين ، مسلوبة الحول ، لا تجسر على الصياح أو الحركة ..

واضطربت الضاحية ، وماجت البيوت ، وسطعت الأنوار ، وأطلت من النوافذ والشرفات رؤوس مذعورة سرعان ما تصايحت وتنادت وملأت الجو ضجيجا ..

واذ ذاك ، وفى وقدة هذا الصراخ المزعج المتقطع الذى أصاب الضاحية بشبه لوثة ، أفاقت دولوريس من سباتها وتنبهت الى الخطر المحدق بها ، فحنت رأسها وانطوت على نفسها ، ثم استجمعت قواها ، واندفعت تلتمس أقرب الطرق الى بيتها !

وكانت أمها العجوز تغط فى نومها ، ووالدها الشيخ الأصم ممددا بجوار امرأته كالجثة الهامدة ، فمرقت بجوارهما كالسهم ، واجتازت الدهليز الطويل ، ثم فتحت باب مخدعها فى رفق ودخلت .

ولكنها لم تكد تدخل حتى أرسلت صيحة مخنوقة وجمدت ، اذ أبصرت نفسها وجها لوجه تجاه .. ساندرو !

وأسرع الرجل فأوصد الباب ثم عاد اليها ، ممتقع الوجه ، مربد التقاطيع ، وقال فى صوت غائر أجش وهو ينظر اليها نظرة ملؤها الكراهية والحقد : « أنا الذى قتلته !.. أنا الذى

قتلت رودريج !٠٠ هو ضحيتك الثالثة !٠٠٠ ولسوف أقتل عشاقك جميعا ولو كانوا بعدد رمال البحر ! »

وشخص اليها فى جنون ثم اردف : « والويل لك لو تفوهت بكلمة ! ٠٠٠ الصمت والتفكير خير لك ! فاصمتى وفكرى !٠٠ فكرى فى مستقبلك !٠٠ فى راحتك !٠٠ واذا ما ارتد اليك عقلك ، فأنا ٠٠٠ »

فقاطعته بلهجة وحشية متحدية : « مهما فعلت فلن أتزوجك أبدا !٠٠ لن أتزوج بقاتل حتى ولو كان أمهر وأمجد مصارع ثيران فى غرناطة ! »

فثار ثائره ودنا منها ثم أمسك بذراعيها وقال وهو يرتجف: « من الذى جعل منى أنا الرجل الشريف مجرما ؟٠٠ ألست أنت ؟٠٠ ألم أحبك حبا يفوق حد العبادة ؟٠٠ ألم تكونى خطيبتى ؟٠٠ ألم تقسمى لى على الوفاء والثبات والاخلاص مدى الحياة؟٠٠ من منا خدع الآخر؟٠٠ أنا أم أنت ؟٠٠ لقد وهبتك قلبى فعبثت به، ومنحتك ثقتى فسخرت منها، ثم غافلتنى واتصلت بذلك الغر الأحمق المدعو « رامون » !٠٠ آثرته على ، لا لأنه جميل ولا لأنه قوى ولا لأنه متفوق فى أى علم أو فن ، بل لأنه غنى ولأنه أبله !٠٠ ولقد حذرتك فلم تحفلى ، فقتلت رامون ، فحذرتك أيضا فهزأت بى فقتلت « أوكتافيو » ٠٠ ثم حذرتك للمرة الثالثة فتحديتنى فقتلت « رودريج » !٠٠ وهكذا لن أدعك مطمئنة أبدا !٠٠ لن أمكنك من الاتصال بأى شاب !٠٠ اما أن تقبلى الزواج منى واما أن أحرمك من كل حب وكل زواج !٠٠ »

فرشقته بنظرة ملؤها الزراية والاحتقار وقالت : « وهل أنا معتوهة لأقترن بطاغية مستبد غيـور مثلك ؟٠٠ ثم من أنت ؟٠٠ ماأنت الامصارع ثيران بسيط لم ينبغ حتى في مهنته !٠٠ **كلا ٠٠ كلا ٠٠ أنا أعتقد اعتقادا راسخا أنك لا تحبنى بل تريد اذلالى ٠ ولو رضيت بك زوجا فستظهر على حقيقتك ، وبدل أن تغمرنى بالحب ستسحقنى تحت وطأة الانتقام !٠٠ أجل ، أنت لا تريدنى لنفسى بل تنشد حبى كى تزهو على اقرانك وتفخر بأنك امتلكت أجمل فتاة فى غرناطة !٠٠٠ أما أنا فأكرهك ! أكرهك ! ومن المحال أن أتزوج برجل تافه حقير وضيع !** »

فهتف ساندرو من أعماق قلبه : « وجرائمى ؟٠٠٠ ألا تدل دلالة مروعة على مبلغ حبى ؟٠٠ من ذا الذى اجترأ وسفك الدم من أجلك الا أنا ؟٠٠ من ذا الذى اجترأ وعرض نفسه للسجن والموت من أجلك الا أنا ؟٠٠٠ انى أعبـدك !٠٠ أعبـدك يا دولوريس !٠٠ واذا كنت قد حاولت أن أكون فى الاجـرام عظيما فما ذلك الا لأقنعك بصدق عاطفتى ، وأرتفع فى نظرك من انسان شائع الى بطل ! »

وتداعت قواه ، فانطرح على مقعد وانهمـرت من عينيـه الدموع ٠

وأخذ يبكى وهى تنظر اليه جامدة شامتة ٠ وفجـأة هب واقفا وقال : « يجب أن أرحل قبـل أن يفطنوا الى وجودى هنا !٠٠ فكرى أيضا وتدبرى ! »

وانحنى أمامها فى خشوع وقبل طرف ثوبها ، ثم اندفـع صوب الشرفة المفتوحة التى تسلقها ليدخل ، ثم هم بأن يثب منها ٠

وعندئذ ، وقبل أن يخطو الخطوة الأخيرة ، سمعت حركة عنيفة فى الخارج ، فلم يحفل وتسلق مسرعا سور الشرفة ، ولكنه عاد فتقهقر ذاهلا حائرا مبهوتا اذ أبصر فى الشارع الضيق جمعا كبيرا من الناس يطوق البيت ويتطلع الى الشرفة ويهدر هدير السيل ٠

واختبل ساندرو ، وأحس أن الخطر محدق به ، وانه سيفقد نفسه وحبيبته لا محالة ، فارتمى على دولوريس وأمسك بكتفيها وطفق يهزها هزا عنيفا ويقول : « مرحبا !٠٠ مرحبا بالموت يا دولوريس ، ولكنى لا أريد أن أموت قبل أن أظفر بحبك !٠٠ فى يدك حياتى ، فانظرى الى حظى وتأملى مصيرى وقدرى عظم حبى ومغامراتى وتضحياتى وانقذينى ! انقذينى من أجل صدق حبى ! قولى أنك كنت على موعد معى وانى كنت فى مخدعك وقت الجريمة !٠٠ انقذينى ، لا رحمة بى بل تقديرا لحبى ، وأنا أقسم لك بأن أدعك حرة وأن أظل أعبدك حتى ولو كنت لأى رجل سواى ! »

فعضت دولوريس على شفتها ، واستمرأت فى هدوء لذة حقدها وانتصارها ولم تتكلم ٠ فصاح بها : « تريدين موتى؟» فابتسمت ولبثت جامدة ٠ وفى تلك اللحظة فتح الباب فى عنف وبرز منه عمدة الضاحية يتبعه نفر من رجال الشرطة وخلفهم رهط من الناس يلوحون بأذرعهم ويهددون بقبضاتهم ويجأرون ٠

وتقدم العمدة نحو الشاب وقال : « منذ أن قتل رامون وأوكتافيو والشبهات تحوم حولك ٠ ولقد قتل الآن «رودريج»

فأنت المتهـــم ، من واجبى أن ألقى القبض عليك حتى تثبت براءتك ! اتبعنى ! »

فطوى ساندرو ذراعيه على صدره وقال فى شموخ : « بأى حق تقبض علي وأنا برىء !٠٠٠ وكيف يمكن أن توجـه الى مثلى هذه التهمة وأنا لم أبرح هذا البيت منذ ساعات ! »

فصاح العمدة بدولوريس : « لا تخافى منه يا آنسة !٠٠٠ نحن نعلم أنك واقعة تحت تهـــديده !٠٠ أحق ما قال ؟٠٠ تكلمى !٠٠ ألم يخرج من هنا ؟٠٠ أكان هنا منذ ســاعات كما يزعم ؟٠٠ أجيبى ! »

فرفعت دولوريس رأسها ثم حدقت الى ساندرو ، ثم أومأت اليه بأصبعهـــــا وصرخت : « **هو الذى قتل بالأمس رامون وأوكتافيو ٠ وهو الذى قتل اليوم رودريج ! قتله ثم جاء الى هنا !٠٠ اقتحم مخدعى وهددنى بالقتل ان أنا لم أتزوجه !** »

فخارت قوى ساندرو ، وصرعته الحسرة ومزقه اليـأس ، فصاح على الفور كمجنون : « هو ذاك !٠٠ أنا ٠٠ أنا القاتل! »

فأحاطوا به وهموا باقتياده ، ولكنه تملص منهم فى عنف وتقدم صوب العمدة وقال له فى ثبات وهدوء : « أنت تعـلم يا سيدى أنى مصارع ثيران ، وانى مرتبط بعملى فى حفــلة الغد ٠ فواجبى يحتم على أن أكون فى الحلبة غدا مع المصارعين ٠ فرجائى اليك أن تمنحنى مهلة يوم واحد وثق انى لن أفر ٠ فى وسعك أن تراقب حركاتى ولكنك لا تستطيع أن تحـول بينى وبين تأدية واجبى ٠ هذه تقاليـد مهنتنا وأنت أدرى بها منى ! »

فتأمله العمدة لحظة ثم قال : « لك ذلك ، على أن تتبعنى الآن ثم أفرج عنك غدا ! »

فقال ساندرو فى سكون : « تقدموا وأنا تابعكم ! »

وخرج فى أثرهم دون أن يلقى أية نظرة على دولوريس .

***

وفى نحو الساعة الرابعة من مساء اليوم التالى ، غص المدرج الكبير بالجماهير ، وازدانت المقاعد بأجمل نساء (غرناطة) ، وأبت دولوريس وقد دفعها الحقد والفضول الا أن تجلس فى الصف الأمامى تجاه الحلبة كى تشهد آخر صراع يقوم به ساندرو ..!

ولفرط رغبتها فى تعذيبه والتنكيل به ، تقربت الى الشاب الأنيق الوسيم ابن العمدة ، والتمست اليه أن يرافقها الى الحفلة وأن يجلس بجوارها .

وكانت الجماهير ما تزال فاترة ساكنة ، فلما نفخ فى البوق ، وفتح الباب الحديدى ، وانطلق منه الثور الجامح وطفق يركض فى الحلبة على غير هدى ، آشرأبت الأعناق ، وأطلت الرؤوس ، وسرت فى المدرج كله غمغمة محمومة تشبه زئير الريح !

وفجأة برز ساندرو والوشاح الأحمر يرفرف فى يده . ثم رشق المقاعد الأمامية بنظرة ، ثم تحول عنها مسرعا وحيا الجماهير وانقض على الثور الجامح .

وكان كل أمله وقد فقد الحب والحياة أن يظفر بالنصر ..

وأحس به الثور فاتجه نحوه ، فلوح له بالوشاح ، فارتبك لحظة ثم ارتمى عليه ، فراغ منه ساندرو كالثعلب ، ثم حاوره كالهر البرى ، ثم وثب عليه كالنمر ، ثم غافله وطفق يغرس السيوف فى جسمه تباعا كى ينهكه ويقطع عليه كل سبيل للانقضاض ..

واستغرق الصراع زمنا طويلا والثور يلهث وساندرو يطارده ، حتى برح التعب بالحيوان الجريح وزاده حنقا وثورة، **فاحتدمت غرائز الجماهير ، واشتد صياحها ، فلم يكترث المصارع ، وتحدى الوحش المخبول،فجن جنونه وانقض بقرنيه على ساندرو يوشك أن يرديه قتيلا ، ولكن ساندرو تراجع فجأة ثم استجمع قواه ثم غافل الثور وطعنه هذه المرة فى صميم عنقه !**

وانهار الوحش على الأرض كالكتلة الصماء،فهتفت الحناجر ، وصفقت الأيدى ، وارتفع صراخ الدهش والاعجاب مدويا فى فسحات المدرج كالرعد القاصف . وكانت حماسة النساء مروعة فطفقن يرسلن صرخات التهليل وهن يرشقن المصارع الجبار بمختلف الأزهار والورود .

ووقف ساندرو فى وسط الحلبة مبسوط الذراعين يحيى الجماهير ، وأمطار الزهر تتساقط عليه ، ودم الوحش الصريع يغسل قدميه .

وشخصت اليه دولوريس .. وأخذتها النشوة !

أحست أنه عظيم . أيقنت أنه بطل . أدركت أنه قد أصبح أمهر وأمجد مصارع ثيران فى غرناطة . فملكها الزهو وعصفت

بها الكبرياء ، وعز عليها الآن فقط أن تنبذ وتحتقر هذا الرجل الجبـــار !

وذكرت فى مثل لمح البرق أنه سيموت بل انه ميت ، وانها هى التى قضت عليه ، فطاش صوابها واستيقظ فيها بغتـة حب جارف أضرمته عوامل الكبر والغرور والحسرة والندم ، فوثبت من مقعدها ، وخلفت ابن العمـــدة مذهولا ، وشقت صفوف الجماهير ، وأخذت تركض لتلحق بساندرو ...

وكان البطل قـد دخل مقصورته خلف المدرج ليستريح ، فاتجهت صوبها ، ولم تستأذن بل اندفعت وفتحت الباب .

وصاحت وهى ترتمى عليه وتضمه الى صدرها : «ساندرو ! ... ساندرو ! ... انى أحبك»،فنظر اليها طويلا ولم يتكلم. **فأهابت به وهى تقبل عينيه تارة وتلثم يديه أخرى : « تعال ! ... تعال معى ! ... انى أحبك ! لقد قضيت عليك بالموت ولكننى أريد أن أهبك قبل الموت نعمة الحياة ! ... تعـــال ولنتزوج ! ... لنتزوج الآن ولأكن لك ولو ليلة واحدة قبل أن تموت ! ... هذا حقك ولن يمانع فيه انسان ! »**

فنظر اليها أيضا ولم يتحرك .

فاضطربت وحدقت فيه . فارتعد وتفرس فيها لحظة ، ثم أخذها بين ذراعيه ...

ولما أحس دفء بدنها الناضر ، واستنشق أريج شعرهـــا المتماوج الاسود الغزير ، ضمها الى صدره فى عنف . ضمها دون أن يقبلها ، ضمها طويلا ، ثم .. خنقها !

جحيم الغـــيرة

كان ذلك فى بيت متواضع فى مدينة روما ، عام ٢٥ للميلاد، وعلى عهد الامبراطور « تيبريوس » •

وكانت الحسناء « ليفيا » جالسة على مقعد حجرى صغـير تجاه التاجر الكهل « أنطونيوس » وهو يتفرس فيها معجبـا بجمالها الساحر الفتان •

وصنبا قلبه اليها ، فدنا منها ، وحاول أن يلاطفها • ولكنها ارتدت عنه شامخة متأبية ، وغمغمت : « محال ! »

فقال الرجل فى حيرة وتوسل :

– ولمـاذا ؟ •• انى أحبك ياليفيا وسأجعل منك أسعــد النساء !

فهتفت المرأة : « لن أتزوج ! •• لا أســتطيع أن أتزوج يا انطونيوس ! »

فردد صارخا : « ولكن لمـاذا ؟ •• لمـاذا ؟ »

فقالت :

– ان فى حياتى مأساة ، وهذه المأساة تكبلنى • ومادمت تحبنى الى هذا الحد فمن حقك على أن أصارحك بمأساتى كى تشفق على يا انطونيوس وتتخلى فى النهاية من تلقاء نفسك عنى ! •• فأسمع •• اسمع اذن قصتى •

والتمعت عينا المرأة ، وتطرحت على المقعـد شبه منهوكة ، وقالت :

– لا تستطيع الزوجة أن تصبر طويلا على معاشرة زوج بخيل وأنانى وشره وغير مكترث • وهكذا كان زوجى • ومع ذلك فقد احتملت فى مبدأ الامر شحه وتقتيره ، اعتقادا منى أن البخل أفضل على كل حال من التبذير ، وان مال البخيل لابد أن يؤول الى بيتهوأولاده ، غير انى تنبهت فجأة وصحوت• رأيت زوجى يقتر على بيته ويحرمنى ويحرم ولده ، كى يسخو فى الخارج على نفسه ، يملأ بأشهى الأطعمة بطنه ، ويقبل على تلك الرذيلة المروعة التى تمكنت منه الا وهى معاقرة الخمر•

وكان يشتغل فى مصنع من مصانع الزجاج فى القرية النائية التى كنا نعيش فيها • فكان عمله هو الذى يستغرقه نهارا ، وكان أصدقاؤه هم الذين يتمتعون به ليلا ، حيث يقضى سهراته فى صحبتهم فى مختلف المطاعم والحانات • أما أنا فكنت وحيدة ، كنت منبوذة • كنت الخادم الوضيعة الحقيرة• كنت الخادم والأم ، لا الزوجة والشريكة • فكان عزائى فى هذه الدنيا هو طفلى الوحيد المعبود كلوديوس ••

والحق انى كنت لا أرى زوجى فى البيت الا فترات•فكانت العزلة تجثم على صدرى ، والافكار المشوشة الغريبة تراودنى ، وجو البيت القاتم الزافر ينعقد حولى كالسحب ، ويوشك فى بعض الاحيان أن يخنقنى !

ولقد حاولت أن أستعيض عن حب الزوج بحب الولد•فاتجهت بعواطفى جميعا نحو ولدى ، ووهبته خلاصة فكرى وقلبى ، وتفانيت فى حبه تفانيا اعتقدت انه لابد أن يملأ فراغ حياتى وينقذنى • ولكنى سرعان ماأحسست أنهذاالحب الأموى المجرد

لا يكفينى . كنت صبية وجميلة ، وكانت الانظار تتبعنى . وكنت سليمة البدن وقوية ، فكان بدنى ينادينى ويزعزع بدعوته كيانى ، ثم يصمت فجأة ويرقد فى اطواء ذاتى ، كى يعود فيستيقظ هامسا فى سمعى ، هادرا فى دمى ، متقدا فى صميم قلبى واحشائى ..

أجل . كنت فى حاجة الى الحب . كنت فى حاجة الى رجل . فاضطربت وذعرت ، وخشيت أن أتهتك وافتضح . فآليت على نفسى أن أبذل المستحيل كى أظل وفية لزوجى ، عساى أن استميله يوما واربحه لنفسى وولدى .

وجاهدت جهاد الجبابرة لاحرك فؤاد ذلك الرجل . توسلت اليه بكل محاسنى وكل مفاتنى ، وكل ما أملك من أنوثة فى الجسد وأنوثة فى القلب ، والفكر ، والروح .. ولكنه كان يعرض عنى ، ويسخر منى ، ويهزأ بعواطفى ، ولا يقربنى الا كما يقرب الحيوان أنثاه ساعة أن تلج به الغريزة ويعصف به سلطانها .

والعجيب ان زوجى كان يحب أصدقاءه أكثر من حبه لنفسه، بل كان لا يرى نفسه ولا يشعر بوجوده الا وهو فى غمرة أصدقائه ، ولانه كان لا يشرب الخمر الا فى صحبتهم ، فقد كان يؤثرهم على نفسه وعلى ولده وعلى امرأته .. فالخمر كانت هى زوجته وحبيبته ، وأصدقاؤه كانوا وصائف هذه الزوجة والحبيبة !

ولقد حاولت أن أجلب اليه الخمر والاصدقاء فى البيت ، ظنا منى انى قد استدرجه وأشفيه . ولكن جو البيت كان يكربه ،

وروح المرح والصخب والعربدة الشائعة فى الحانات هى التى كانت تجذبه وتستهويه ..

وهكذا يئست . يئست وانتابنى من فرط الكمد واللوعة شبه خبال .

لم أفلح فى استمالة زوجى ، ولم أفلح فى الاكتفاء بحب ولدى ، ولم أفلح فى التغلب على وحدتى . فناءت على حسرة مريرة ، يدلت طبعى ، ونكرت خلقى ، وأحالتنى الى امرأة منطوية على نفسها ، حزينة كئيبة حالمة ، مولعة بالسهوم والشرود ، تنتقل فى أرجاء البيت كروح حائر لا يعرف أين يجد المستقر ، وأين يلتمس العزاء والسلوى !

وعندئذ عرفت « لوسيوس » ..

كان يمت بصلة القرابة الى زوجى ، وكان قد هبط القرية فقيرا شريدا ، واستطاع أن يحصل بعد جهد على عمل متواضع فى المصنع نفسه الذى كان يعمل فيه قرينى .

ودخل الشاب بيتنا . فلم أكد أتصل به وأتحدث اليه حتى ذهلت ..

كان جميلا ورقيقا . كان عذب الابتسامة ، عذب النظرة ، عذب الحديث . وكانت عذوبته تنحدر من شقائه ومما قاساه فى حياته من بؤس أسود وحرمان طويل . فرأيت أنا فى هذه العذوبة شيئا جديدا ، شيئا خارقا طالما تلهفت عليه ، بل رأيت فيها صورة روح شاكية ، ونفس تاعسة ، وقلب مستوجد مسكين برح به الاسى فبات أظمأ ما يكون الى شىء من الرحمة والشفقة ، والعطف والحنان ..

وهكذا أحببته ! ·· أحببتـــه وأحبنى · أحببته لانه كان يشبهنى · وأحبنى لانه استشعر عذابى · بيد انه استشعر وتحفظ · استشعر وتألم · فأكبرت فيه تحفظه ، وكاشفتـه ذات يوم بحبى ··

وكانت سعادة خارقة لم أحلم بها ·

ولكنها كانت سعادة رائعة ومسممة ·

كنت أكذب على زوجى ، وأكذب على الناس ، وأكذب على الآلهة · كنت أعيش فى جو خانق من الحذر ، والقلق،والغش!

كنت أرتعد خوفا كلما ثبت الى رشدى ، وأرتعد اشمئزازا وكبرا كلما تبذلت وتهتكت ، واضطررت أن أشطر جسدى بين زوجى وحبيبى ··

وكان لوسيوس - وقد ذهبت بلبه نشوة الحب ورغبـة التملك - يحس نفس احساسى ، ويستهول منى كيف أرضى بهذه القسمة الملعونة ، وكيف لا أجاهـد لاتخلص وأتحرر وأصبح له وحده ··

وملكته غيرة طائشة مخبولة · فجاءنى ذات يوم وهو عابس الوجه حانق ، وقال لى : «يجب أن تتخلى عن زوجك وتتبعينى!»

فحملقت فيه مبهوتة وصرخت : « وولدى ؟! »

فأجاب فى هدوء متوعد جمد الدم فى عروقى : « أتحبين طفلك أكثر منى ؟ »

فقلت : « ان والده فى نظرى هو أنت يا حبيبى · وليس فى وسعى أن استغنى عنكما والا هلكت ! »

فلبث لحظة مطرقا يفكر ، ثم رفع الى بصره الزائغ وقال :

— اذن فاصحبى الطفل معك !٠٠ سنفر من هنـــا ٠٠ ثم نكتب الى زوجك ونطلب الطـــلاق ٠ وفى يقينى أن زوجك البخيل الشحيح الذى لا يحبك ، والذى يؤثر المـال والخمر والاصدقاء عليك وعـلى ولدك ، لن يطلب أكثر من أن يعيش حرا ، ويتخلص من نفقاتك ونفقات طفلك ٠ هيئى غدا متاعك٠ ومتى جن الليل وغادر زوجك البيت الى الحانة كعادته ، **اسرعى انت واتجهى صوب الهضبة الكبيرة الكائنة فى أقصى القرية ٠ سأنتظرك هناك ٠وسأحملك انت وطفلك على ظهر جوادى ، وأذهب بكما الى حيث الحب والامن والسعادة والحرية !**

وكان يتكلم بصوت فيه من العزيمة الصادقة والحماسـة المشبوبة والعذوبة الفاتنة ، ما خلبنى وأسرنى وأشعرنى بالرغم منى انى ملك يديه ٠ فلم أتردد وحزمت أمرى ثم غـــافلت زوجى فى الموعد المعين وتبعت لوسيوس مصحوبة بولدى ٠

ولمـا جئنا الى هنا ، الى روما ، استأجرنا غرفتين فى منزل غسالة عجوز ثم كتبنا الى قرينى ٠ فلم يعـــارض فى الطلاق ، واشترط فقط كما توقع لوسيوس أن أتولى أنا الانفاق عـلى طفلى الذى كان قدبلغ اذ ذاك السنةالسادسة منعمره المنكود٠

ووفق لوسيوس الى عمل فى أحد المصانع ٠ فاستبشرت أنا بهذا التوفيق ، وأيقنت أن حلمى قد تحقق ، وبدأت الحياة ٠٠

بدأت الحياة ناعمة رقيقة حلوة ٠ بدأت الحياة سمحـــة ميسورة عذبة ٠ بدأت الحياة لا ظل فيها ولا سحاب ٠٠ وفجأة، ولا أدرى كيف ، اكفهر جوها ، وتلبدت سماؤها ، وشـــاع فيها ظلام دامس أحالها الى شبه هـــاوية مغفورة معلقة فوق

رؤوسنا ، ومحفورة تحت أقدامنا ، ونحن فى عمقها السحيق نتدهور ونتخبط !

اشتد حب لوسيوس لى ، واشتد تهافته الحسى على ، واستحوذت عليه فى الوقت نفسه غيرة لم أتوقعها ٠٠ لم أتصورها ٠٠ لم أفكر أبدا فيها ٠٠ غيرة مروعة من طفلى البرىء المسكين !

كان يقربنى ويقصى الطفل ، ويلاطفنى وينهر الطفل ، ويعبدنى ويكره الطفل ٠ وكان كلما اتصل بى زاد بغضه لولدى ، وأحس كأن ابنى يصدنى عنه ، ويسلبنى منه ، ويأبى الا أن يسمم بوجوده حبنا ٠٠

وكان لوسيوس لا يحفل بشقائى ولوعتى ، ولا بتضرعى واستصراخى ٠ بل كان يتخذ من عذابى مادة لالهاب سخطه ، والهاب بغضه ، والهاب غيرته ، والامعان فى اضطهاد ولدى ٠

وكان الطفل البرىء يبكى ولا يفهم ٠ فكان بكاؤه يضاعف من حقد لوسيوس عليه ٠ فلا يكتفى بتأنيبه ، أو زجره ، أو حرمانه من الطعام ، أو اجباره على القيام بأشق أعمال البيت وأوضعها ، بل يضربه أيضا ، يضربه لاقل هفوة ، يضربه ضربا مبرحا يثور له كيانى ، ويقطر له دم قلبى وروحى !

ولما أضناه وجود الطفل ، فكر فى أن يرده الى أبيه ٠ وأن يعرض النزول عن نصف مرتبه لقاء أن يتولى زوجى تربية ولده ٠ ولكنى رفضت ٠ رفضت بكل قواى ٠ رفضت أن أتخلى عن ولدى ٠ فضاقت الدنيا فى وجه لوسيوس ، واستبد به اليأس والحنق ، ولم يعد يجد متنفسا لغيرته الا فى معاقرة

الخمر ، كما كان يفعل زوجى !

وبدأ يعيش كما كان يعيش زوجى تماما . بدأ يجتوينى وينبذنى . بدأ يهجرنى الى الحانات . بدأ يقبض يده عنى . بدأ يؤثر على المال ، والكأس ، والأصدقاء .. واللهو والمرح والعربدة والحرية !

وكان لا يكاد يدخل البيت قبيل الفجر مترنحا يهـذى ويصخب ، حتى يغلق دونى باب مخدعى ثم ينفرد بولدى ، ثم ينقض بغتة عليه ، فيعابثه أولا ، ثم يكايده ، ثم ينسب اليه تهما هو منهـا براء ، ثم يضربه فى لذة وحشية خبيثة .. ثم يقهقه كمعتوه ، والطفل منطرح على الارض عندقدميه يتلوى ويصرخ ويبكى بكاء يفتت الاكباد !

وكان السخط ينهب اذ ذاك عقلى ، فكنت أحطم باب مخدعى وأخرج . فيمشى الى لوسـيوس جاحظ العينين ، مضـموم القبضتين . فترتعد فرائصى وأتقهقر ، ولا أستطيع أنا أيضا الا أن أتلوى وأجأر وأبكى ..

وأصبح بغضى للوسيوس أشد وأعمق ألف مرة من بغضه هو لولدى . واسـود كل شىء فى عينى .. وعزمت ، عزمت أن أفر بالطفل الى بلد بعيد . ولكن لوسيوس فطن لتدبيرى . فضربنى أنا أيضا ، وحبسنى فى البيت ، وجعل من الغسالة العجوز جاسوسا على ، فاشتد يأسى ، ولبثت مع ذلك أتحين الفرص وأنا أتقلب على مثل جمر النار .

وفى اليوم الذى صدر فيه الحكم بطلاقى ، فى اليوم نفسه، حدث مـا لم أكن أتوقعه أبدا ، ومـا لا يمكن أن أنسـاه !

لم يكد لوسيوس يدخل البيت ظهرا ويجلس الى المائدة ، حتى أبصرته يخرج من جيبه زجاجة خمر ، ويفضها ملهوفا ، ويلهج بذكر طلاقى وحريتى وعزمه على الزواج منى ، ويدعونى لمشاركته فى الشراب ..

وكان يضحك تارة ويبتسم أخرى . وكان ضحكه يبدو صادقا ، ثم يلوح زائفا ، ثم يخفت ويستقر على ابتسامة غريبة لم أفهمها . ابتسامة فيها حزن ورثاء ، وفيها ألم وعناء ، وفيها توجس وقلق ، وفيها وعيد وارهاب !

ومضيت أنظر اليه مشدوهة ، وأحاول أن أفهم . ثم تناولت من يده كأسا واحدة ترشفت منها وأنا أتفرس فيه . ولكنه لم يكترث لى وطفق يشرب .. طفق يشرب ويأكل وهو ذاهل .. وبعد أن شبع وارتوى ، قبلنى ، ثم مال الى ولدى وهم بأن يلاطف خده بأنامله . بيد أنه أسرع ونحى يده كأنها أوشكت أن تمس جمرة متقدة ، ثم نهض من فوره شبه مذعور وخرج .

ولما عاد ليلا أنكرته وخيل الى أنه قد جن . كان يتطوح كفرع شجرة متداعية . وكان يتكلم فى تشوش ملحوظ ، ويتلفت فى هوس مفزع ، ويقهقه قهقهة طويلة جشاء كأن شخصا يزين له جنونه ، ويدفعه إليه ، ويغريه به ..

وفجأة ، وبينا أنا أتفرس فيه وارتجف ، وبينا طفلى يخالسه النظر ويروغ منه اتقاء للطماته ، **رأيته يدس يده فى جيبه بغتة ، وينتزع منها سكينا حادة النصل ويقهقه . فوثب قلبى فى صدرى وصرخت . فلم يمهلنى ، ومال الى الارض وأمسك بطفلى ، ثم دفعه أمامه .. ثم ألصقه بالحائط ، وارتد عنه**

بضع خطوات ، ثم صاح به ملوحا بالسكين وهو ما يزال يقهقه :

– مكانك ٠٠ لا تتحرك ٠٠ سأرشق السكين من هنا ٠٠ وسأصيبك ٠٠ أتفهم ؟٠٠ سأصيبك فى صدرك ٠٠ لابد أن أصيبك فى صدرك !

وارتعد الطفل وجمد ٠ أما أنا فقد انخلع قلبى وتفطر ٠ فارتميت على لوسيوس ، وصرخت :

– اليك ٠٠ اليك عنه !

ولكنه كان قد تراجع من تلقاء نفسه ، ودس السكين فى جيبه ، ومضى يتطوح ويقهقه ٠

وانهار بدنى ، وخارت أعصابى ، فسقطت على مقعد وأجهشت بالبكاء ٠ ولكن عينى الحاقدة ، عينى المتضرمة ، كانت منشبة المخالب فى بدن لوسيوس ، تتبعه النظر ، وتتأمله وهو يوصد علينا كعادته باب البيت بالمفتاح ، ثم يدخل مخدع النوم متثاقلا مترنحا ٠٠

ولم يكد يختفى حتى انجابت السحب عن ذهنى وصحوت ٠ صحوت وملكتنى فكرة واحدة ، فكرة ثابتة ، فكرة مروعة ، وهى أن لوسيوس الذى كان يتلهى الساعة بارهاب ولدى ويلوح بقتله وهو يضحك ويمزح ، قد يجد غدا ، وقد يعتزم غدا ، وقد تعميه الغيرة والكراهية ، فيقتل الطفل ٠٠ بالفعل !

وهبط قلبى فى صدرى ٠٠ فطوقت طفلى بذراعى ، وحملته الى غرفة العجوز حيث فراشه ، ثم تأملت العجوز فى حقد

وهى تغط فى نومها ، ثم هدأت من روع الطفل وقبلته وأرقدته ، ولبثت بجواره فترة حتى سكن ونام ..

وعندئذ ، وفى هدأة الليل الزاخرة ، عاودتنى فكرتى .. فكرة احتمال قتل ولدى !.. عاودتنى كوقد الحمى ، وخبلت عقلى ، واجتاحت تصورى ، وجثمت بغتة على وصرعتنى .. صرعتنى وهى توسوس لى وتشجعنى وتحفزنى .. فنهضت .. نهضت ولا أدرى لماذا نهضت .. نهضت وقلبى يخفق وصدرى يلهث وأسنانى تصطك ، ومشيت .. **مشيت كما يمشى النائم ، واتجهت الى المطبخ ، وانتزعت من بين حناياه المظلمة سكينا ، ثم تحولت الى الحجرة .. الى المخدع .. الى المخدع الذى اختفى فيه لوسيوس !.. واذ ذاك فقط أدركت .. أدركت أنى أسيرته ، وأنى لن أفلت أبدا منه ، وأنى أريد .. أريد أن أقتله .. ولابد أن أقتله قبل أن يغافلنى هو ويقتل ولدى ..!**

.. فلم أتردد ودفعت الباب .. دفعت الباب فى رفق ودخلت .. فانسل خلفى ضوء المصباح الخافت القائم فى فسحة الدار ، ووثب أمامى ، وامتد الى السرير الذى كان يرقد عليه لوسيوس .. !

ولاح السرير فى أقصى المخدع تنصب عليه أشعة الضوء الكابية . فحبست أنفاسى ، واتجهت نحوه والسكين فى يدى . ولكنى لم أكد أدنو منه واتطلع اليه ، حتى فغرت فمى وشهقت ! أحسست كأن بدنى كله ينشق فجأة ويميد .. رأيت لوسيوس ، لوسيوس المجرم ، لوسيوس المتجبر

المتوحش ، لوسيوس الذى عزمت أن أقتله ، رأيته ممددا على سريرى ، جاحظ العينين ، ملتوى الشفتين ، مشوه التقاطيع ، يترنح فى يده المتشنجة مقبض السكين التى كان يهدد بها ولدى ، وتندلع من عنقه الغليظة قرحة ناتئة مروعة ينزف منها الدم ٠٠ !

وارتميت على السرير ، وتحسست الرجل الأصم الهامد ٠ وانعقد لسانى ، وتاه عقلى ، وأجلت البصر حولى شاردة ومسلوبة ، فأخذت عينى ورقة كبيرة منبسطة على المنضدة يومىء اليها النور ٠ فانقضضت عليها ، واختطفتها ، وقرأت فيها هذه العبارات التى ثبتت فى ذهنى لفرط ما رددتها :

« لا غنى لك عن طفلك يا ليفيا ٠ سامحينى لأنى عذبته ٠ لقد كنت أغار منه وأكرهه بقدر ما أحبك ٠ لذلك خشيت أن أقتله فأفقدك ، فآثرت أن أعاقب نفسى وأقضى على حياتى لأستريح ٠٠ وداعا »

ونظرت الى الهيكل التاعس المشوه وجاشت عواطفى ٠٠ ذاب حقدى ٠٠ مات بغضى ٠٠ نسيت كل العذاب الذى تحملته وتحمله ولدى ٠٠ فارتميت ثانية على الجثة وقبلتها ٠٠ نعم قبلتها ٠٠ قبلت فيها الضمير الذى افترسها ٠٠ قبلت العينين والشفتين والقرحة الدامية ، وكل لمحة من لمحات هذا الوجه الذى كان يتجبر مكرها ويتوحش مكرها ، والذى ارتد الآن الى أصله ، فسكبت عليه التضحية بغتة تلك العذوبة الخلابة التى كنت أعبدها ! »

***

وصمتت المرأة لحظة ، ثم حدقت الى التاجر الكهل أنطونيوس وأردفت :

– ومنذ ذلك اليوم وأنا أعيش من أجل ولدى ، يستبد بى خاطر واحد لا ينفك يحوم حولى ويحـــذرنى : وهو أنى لو غامرت وتزوجت مرة أخرى ، فقد تتكرر المأساة ، وقد أصادف زوجا أشد غيرة وأقل رحمـــة من لوسبيوس ، يعذب ولدى البرىء المسكين ، وقد يغافلنى يوما ويقتله ٠٠ لذلك لم أتزوج ٠٠ ولن أتزوج أبدا !

منذ الابد

كان الحوذى « ريشار » يتمايل على ظهر عربته ، وسوطه المستطيل فى يده ، وفرسته الجميلة الخفيفة « هيلينا » تنهب الأرض نهبا ، كأنما الشوارع العريضة قد خلقت لها وحدها ..

وكان ريشار يتأمل فرسته فى غبطة ، ولا يلهب ظهرها بالسوط أبدا ، بل يخاطبها ويمازحها ويصدر اليها شتى الأوامر فى لهجة رقيقة ، وفى صوت ملؤه العطف والحنان .

والعجيب أن هيلينا لم تكن ذكية فحسب ، بل كانت متوقدة الذكاء الى حد يثير الذهول فى نفس كل من يلاحظها .

فمجرد اشارة من ريشار كانت تكفيها ، ومجرد نبرة من صوته كانت تلهبها ، ومجرد ضحكة من ضحكاته كانت تبعث فى أعضائها المرح ، وفى غريزتها قوة الفهم والطاعة .

وكان الحوذى المسكين يحبها حبا عميقا ، كان يعيش منها ويعيش لها ، كانت مصدر رزقه ومصدر سعادته ، ومصدر جميع الذكريات الساحرة التى خلفها شبابه البعيد فى أطواء نفسه ..

ولقد كان ريشار شابا فيما مضى ، وكان عاشقا ، وكان على وشك أن يتزوج بالفتاة الجميلة التى أحبها . ولكن تلك

الفتاة عبثت بقلبه ، وهزأت بحبه ، واحتقرت مهنتـــه ، ثم هجرت القرية التى تعارفا فيها ، وسافرت ذات صبـاح الى باريس لتشتغل فى أحد المسارح ممثلة أو مغنية أو راقصة .

وكان ذلك منذ أكثر من عشرين سنة . كان ذلك منــذ دهر طويل . بيد أن ريشار العاشق المعذب المنبوذ لم يستطع أن ينسى تلك الفتاة التى كانت نعمـة لقلبه ، وأملا لمستقبله ، **فظل وفيا لحبها مخلصا لطيفها ، ولم يتزوج !**

أجل .. لم يعرف امرأة غيرها ، وكافح بمفرده وجاهــد وتألم وهو ما يزال يذكرها ..

بيد أنه لم يشأ أن ينتقل من قريته الى العاصمة ، لم يشأ أن يرى عذراء أحلامه فى ثوب غانية ، فلبث فى الريف زمنـا طويلا يفكر فيها ، ويحلم بها ، ويقتات من فضلات النعيم التى خلفتها وراءها .

وكان من فرط حبه لها ، يتمنى أن يتمثلها فى أى شىء حى ليستطيع أن يعبدها . **فلما اشترى فرسته أطلق عليها اسمها، فأحس فى مثل لمح الطرف أنه ينفخ فيها الحياة ويبعثها ..**

وهكذا كان الحوذى ريشار يخاطب الفرسة كما كان يود أن يخاطب هيلينا ، ويبثها همه كأنها هيلينا ، ويداعبهـــا ويمازحها ويناجيها اسعد ما يكون بهـذا الحب العميق الذى لا يمكن أن يتطرق اليه أى رياء .

ومع ذلك فريشـــار كان انســانا ، أما هيلينـــا فكانت ويالالأسف حيوانا أبكم لا يستطيع أن ينقع غلة عاشق معذب منبوذ ..

وعلى مر الزمن برمت نفس ريشار بالوهم ، وصبت روحه الى الحقيقة ٠٠ أراد أن يذهب الى العاصمة ٠ أن يشتغل فى باريس ٠ لا ليتصل بحبيبته أو يحاول أن يراها ، بل ليعيش فقط حيث تعيش ٠٠

وها هو ذا الآن يلوح فى الهواء بسوطه ، وينطلق بعربته ، ويهيب بهيلينا أن تتئد فى حركاتها ، وتنعم البصر حولها ، وتعجب مثله بكل هذا الجمال ٠٠

وفجأة صاح به صوت أجش يقول :

ـ هنا ! ٠٠ قف !

فجذب العنان ، وأوقف العربة ، وتلفت غير حافل ٠ فأخذت عينه الشاردة هيكل رجل يدفع بامرأة الى جوف العربة ، ويجلس بجوارها ويهتف : الى الميدان الكبير !

فأطلق ريشار العنان لفرسته ، وعز عليه أن يعكر هذا الانسان صفو حلمه ، فارتد الى خياله ، واسلم نفسه لماضيه الجميل ٠

وترادفت الشوارع ، وتعاقبت الأزقة ، ومرقت العربة من حى ساكن هامد ، **فاستفاق ريشار بغتة ، وترامى الى سمعه حديث المرأة تخاطب الرجل فى جوف العربة ، وصوتها يزفر تارة ويخفت أخرى ، كأنه ينبعث من أغوار كهف ٠**

وملك ريشار حب الاستطلاع ، فأرهف أذنيه وانصت ٠

قالت المرأة وهى تكاد تبكى :

ـ ارحمنى يا الكسندر ! ٠٠ لا تعذبنى فأنا أحبك ! ٠٠ أنا مريضة ، وداء القلب يفتك بى ، ونوباته المروعة تهددنى ! ٠٠

اشفق على ولا تخدعنى !٠٠ أترك عشيقتك ! أترك فاندا ! عد الى ! تعال معى !٠٠ لا تدعنى فريسة هـذا المرض الذى ابتليتنى به أنت يوم نبذتنى وغدرت بى !

فضحك الرجل وقال بصوته الأجش :

– ثقى أنى لا أحب سواك ٠٠ ولكنى الآن متعب ويجب أن أعود الى بيتى !

فصرخت المرأة :

– تعال معى وارحمنى !

فصاح الرجل متبرما :

– قلت لك اليوم لا !

فأجهشت المرأة بالبكاء ، وعلا نشيجها بغتة ، فاضطرب ريشار وجمد الدم فى عروقه ، وحنى رأســـه وتلفت ، لعله يستطيع أن يرى وجه المرأة ٠٠

ولاحت فجأة حديقة الميدان الكبير ، فهتف الرجل :

– قف !

وضم المرأة الى صدره ، وقبلها ، وانسل من العربة وهى متشبثة به ٠٠ ثم ضاق ذرعا بها فتملص منهـــا فى عنف ، وناول ريشار ورقة مالية ، ثم أسرع الى بيته خلف الميـدان وهو يركض ٠

ومزق صراخ المرأة قلب ريشار ، وانتظر أن تعين له طريق السير ، ولكنها ارتمت فى جوف العـربة منتحبـــة ، فروعه حزنها ، واشفق عليها ، وترجل بالرغم منه ، وقال لها :

– هل تشكو السيدة شيئا ؟ ٠٠ هنا صيدلية قريبـــة ،

وفى وسعى أن أسعف السيدة اذا شاءت ٠٠

فرفعت المرأة رأسها ، وأطلت قليلا ، وحدقت فيه ٠٠ حدقت فيه بعينين سوداوين عميقتين ، فنظر اليهـا ، ثم تفرس فيها ، ثم جحظت عيناه وانخلع قلبه وصاح :

ــ هيلينا !

فشخصت اليه وتمتمت :

ــ من أنت ؟

فانعقد لسانه حيرة وخوفا ، فانتهرته قائلة :

ــ من تكون ؟ ٠٠ ألست الحوذى ؟ من أين تعرفنى ؟

وصرخت كأن ضوءا ساطعا خطف بصرها :

ــ من أنت ؟

فأجاب الحوذى وهو يتأملها :

ــ أنا ريشار يا هيلينا !

فغمغمت مختلجة وهى تصعده بنظراتها :

ــ ريشار !

فاستند الى العربة خشـية أن يسقط ، وقال وهو يتطلع اليها وقد تفطر قلبه :

ــ أهـذه أنت ياهيلينا ؟ ٠٠ ماذا دهاك ، وكيف أصبحت هكذا ؟

فاغرورقت عيناها بالدموع وقالت :

ــ ليتنى ٠٠ ليتنى تزوجتك يا ريشار ! ٠٠ لقد حطمت حياتى بيدى ! ٠٠ فشلت فى كل شىء ! ٠٠ لم أصلح لاممثلة ولا راقصـة ولا مغنية ! ٠٠ قاسيت كثيرا وتحملت كثيرا

واضطررت فى النهاية الى أن أشتغل مربية أطفال ! .. وهأنذا اليوم امرأة مريضة شريدة منبوذة ، يخدعنى الرجل الذى أحببته ولم أحبب فى هذه الدنيا سواه !

ووضعت يدها على قلبها المريض ، وأرسلت فى لوعة مخنوقة شبه أنين . فجاشت عواطف ريشار ، وملكته الرحمة ، فصاح بها وهو ممسك بيديها الضامرتين :

– تعالى معى ! .. اتبعينى ! لقد انتظرتك دهرا طويلا ، وفى وسعى أن أجدد حياتك وأجدد شبابك ، وأحبك اليوم وغدا أضعاف ما كنت أحبك منذ سنين ! .. اتبعينى ولنتزوج ونقض البقية الباقية من عمرنا هانئين ! .. تكلمى .. أجيبى !

فرفعت اليه بصرها الزائغ وقالت :

– تتزوجنى ؟ . . أنا ؟ . . وهو ؟ . . هو ؟ . . كيف أنساه ؟ .. ربما كان لايزال يحبنى ! .. ربما يهجر عشيقته الجديدة من أجلى ! .. ربما يشعر بالندم ويعود فى يوم الى !

فصرخ ريشار :

– لن يعود ! .. انه شاب قوى وأنت كهلة مريضة ! .. أنت فى حاجة الى العطف والرعاية والاخلاص . فثوبى الى رشدك واتبعينى ! فكرى فى شيخوختك وعودى الى !

فحدقت فيه لحظة وابتسم أمامها المستقبل ، فتشجع ريشار وهتف :

– اتبعينى !

فأطرقت برأســها وفكــرت ، ثم اختلجت وتأوهت ، ثم سرحت بصرها فى الفضاء البعيد · وفجأة مدت ذراعهــا ، وأومأت بأصبعهــا الى منزل عشيقها الواقع خلف الميــدان الكبير ، وقالت فى عزم طارىء عميق وهى ترتجف :

ـ لابد أن أذهب الى بيته ! ·· قلبى يحدثنى أنهــا كانت فى انتظاره هناك ! فاذا وجدتهما معا ، اذا تأكدت من خيانته مرة أخرى ، عدت اليك يا ريشار ، ورضيت أن أتزوجك !·· أمهلنى فترة ··

ومرقت من العربة كالسهم ، واجتازت الميــدان الكبير ، ودخلت البيت ، وريشار يتبعها النظر ، وأنفاسه تتعــاقب ، وآماله تتواثب ، وحواســه تتقلب على مثل جمر النار ·

وبغتة أبصرها ·· رآها تندفع كمخبولة · رآها تعــدو كمعتوهة · رآها تتخبط كالحيوان المطارد المطعون ·

فأسرع اليها وقال :

ـ ماذا حدث !

فغمغمت ويدها على قلبها :

ـ لم يرحمنى ! ·· ثارت ثورته على ! ·· صارحنى بكل شىء ! ·· قال أنه يحبها ، وأنها معه ، بقربه ، فى بيته · ثم أهاننى وطردنى !

فتمتم ريشار كمجنون :

ـ والآن ؟

فصرخت المرأة من أعماق قلبها :

ـ خذنى ! ·· خذنى ياريشار وأنقذنى !

وتهاوت على نفسها ، وكادت تنهار ، فتلقاها ريشار بين ذراعيه ، ودفع بها فى رفق الى العربة . ثم قفز الى مقعده ، وتناول سوطه ، وألهب به ظهر الفرسة ، وصاح وهو يشعر كأنه قد أوتى فى لحظة ملك الدنيا :

– الى البيت يا بنيتى ! .. الى البيت !

ولم يشأ أن يدعو الفرسة باسم حبيبته ، فغضبت وزمجرت ، ثم لانت وخضعت ، واستخفها نشاط سيدها ، فاستجمعت قواها ، وانطلقت كالريح .

وغمرت الفرحة قلب ريشار ، فتمايل على مقعده ، وتلاعب بسوطه ، وشرع يغنى .

وارتفع صوته ، وجلجلت نغماته ، وتفجر ينبوع نفسه ، وتدفقت منه السعادة كالسيل .

وطفق يغنى ، والفرســة المذهولة تتلفت اليه ، والمارة يقفون ويتفرجون عليه ، والشوارع الواسعة المتلألئة تنفتح أمامه ، وترحب به ، كأنه قائد عظيم أصاب نصرا مجيدا بعد معركة حاسمة .

واختفت الشوارع بغتة . وانســـابت الأزقة ، وتمددت الدروب والحارات ، ولاح بيت ريشار فى أقصى درب مظلم مهجور ، فأرسل صيحة فرح مدوية ، وحث الفرسة مااستطاع ثم جذب العنان ، وأوقف العربة وقفز الى الأرض ، واندفع الى بيته صارخا :

– أماه ! .. أماه ! .. لقد عادت هيلينا !

وخرجت الأم العجوز لاهثة ، وبرزت الجارات من أعماق

البيوت ، وتجمهر صبية الحى وتدافعـــوا ، وأحاط الجميع بالعربة ٠

وتقدم ريشار ، مشرق الوجه ، لامع العينين ، ورفع مظلة العربة وهتف :

ـ **هيلينا !**

ولكنه لم يكد يراها حتى جمد الدم فى عروقه وصعق ٠

أبصر حبيبته ، معبودته ، المرأة الساحرة المنشودة التى فاز بها بعد سنين ٠٠ أبصرها فى جوف العربة ، ورأسها مائل على كتفها ويدها ممسكة بقلبها ، تنظر الى الفضاء بعينين جاحظتين ، وأهدابها الطويلة توشك أن تتحرك وترف على وجه شاحب ، وتبعث الحب والجمال والحياة فى جثة هامدة !

ولبث ريشار يحدق الى الجثة بين صرخات الجمع المحتشد ٠ حدق اليها ولم يتكلم ٠ حدق اليها ولم يبك ، ثم حملهـــا بين ذراعيه وصعد بها الى حجرته ، وأرقدها على فراشه ٠٠

ولمـــا جن الليل ، وانصرف الناس ، قبلها ٠٠ قبلها طويلا وتمدد بجوارها ٠٠٠

وأحس فى تلك اللحظة أنه مع ذلك سعيد ، وخيـــل اليه أن هيلينا كانت منذ الأبد زوجته !

الرسائل الفاضحه

كان ذلك فى حى شعبى من أحياء (ميلانو) ، وفى منزل مؤلف من طابق واحد ، تحف به حديقة صغيرة ، وتملكه سيدة عجوز كانت فيما مضى صانعة قبعات .

وكان أحد عمال السكك الحديدية قد أقام فى تلك الليلة بجوار هذا المنزل - وفى الهواء الطلق - عرسا لابنه الوحيد ، اشترك فيه أهل الحى جميعا .

وكان منزل السيدة العجوز صانعة القبعات هادئا ساكنا ، مغلق النوافذ ، مسدل الأستار ، تسبح احدى حجراته النائية فى ضوء خافت ينعقد فى الجو أشبه بسحاب ساحر رقيق .

وكانت « سونيا » واقفة تجاه باب تلك الحجرة ، ملقية برأسها على كتف « أوكتافيو » ، وقد تهدل شعرها الأسود الغزير ، ولمعت على شفتيها القرمزيتين ابتسامة ملؤها الدهاء والخبث ..

وكان الشاب ضائعا فى غمرة حبه ، يفكر فى نشوته فقط ، وفى سعادته فقط ، وفى هذا النعيم الذى فاز به آخر الأمر ، فاستغرق عواطفه ، وختم على بصره ، وحال بينه وبين رؤية الحقيقة المروعة الفاجعة ..

وكانت سونيا تحنو عليه ، وتضمه فى رفق الى صدرها ، وتهدهده وتداعبه وتناغيه ، فلم يكن فى وسعه أن يستبطن دخيلة نفسها !

ومالت اليه بجمع بدنها الناضر الغض ، وهمست فى أذنه بصوت ناعم رقيق :

— ستفوز بكل شىء عما قريب ! ٠٠ وسأكون لك فلن تشقى ولن تتعذب ، ولن تعرف بعد اليوم حيرة القلب !

وضحكت فجأة ثم قهقهت ، كأن الفرح قد احتواها وملك عليها نفسها ، فاستطار لب الفتى ، وهم باحتضانها ، ولكنها دفعته عنها فى رفق ، ثم أقبلت عليه فى دلال ، ثم تملصت منه ٠٠ ونظر اليها نظرة اليائس المتوسل ، وبسط كفيه مستجديا وهتف :

— سونيا ٠ انى أحبك !

وأغرورقت عيناه بالدموع وأردف :

— كفى تعذيبا وتنكيلا ! ٠٠ لقد عشت فى انتظار هذه اللحظة ، فأشفقى على وكونى لى ٠٠

وهفت به أعصابه ، فحاول أن يعانقها ، ولكنها ردته عنها فى عنف ، ثم استدركت وضحكت ، وغمغمت وهى ترمقه بنظرة باردة متشفية :

— وهورتانس ؟ ! ٠٠ هل نسيتها ؟ ٠٠ هل انصرفت عنها بمثل هذه السرعة ؟

فأبرقت عيناه وأجاب :

– لن أعود اليها أبدا ! .. سأكون لك وحدك ياسونيا !

فحدقت اليه وقالت :

– ولكن هورتانس تحبك ولن تتخلى أبدا عنك ! .. ثم هى فتاة حادة المزاج ، نارية العواطف ، قوية الشخصية ، تلتهب عشقا وأملا وغيرة .. ألا تخافها ؟

فأجاب أوكتافيو وقد تجهم وجهه :

– وما الذى تستطيع أن تفعله هورتانس ؟ .. لقد كانت خطيبتى ، ولقد وعدتها بالزواج قبل أن أحبك .. أما الآن فلا امرأة لى سواك ولا عشيقة غيرك . ولقد قطعت كل صلة لى بهورتانس منذ أمس كما تعلمين . فأنا لك ، لك وحدك ، وان كنت أنت لغيرى ! .. لارماندو ! .. لزوجك ! .. لذلك الرجل القوى الجميل الذى أكرهه من صميم فؤادى .

وصرخ مستطردا :

– لشد ما أكره زوجك هذا ! .. انه يراك فى كل يوم !.. يحظى بك فى كل ساعة ! .. يعيش معك تحت سقف واحد! وأنا .. أنا .. أنا بائس شريد عاجز منبوذ ، ينتهك غيرى حرمة سعادتى ولا أستطيع حياله شيئا !

وظل يبكى وهى تتفرس فيه .. كان يتعذب ، ولكن سونيا لم ترث لحاله . لم تشفق عليه ، ولبثت جامدة ذاهلة تحدق الى فكرتها الثابتة ، وتستمع لصوت انتقامها ، وتتمهل وتتريث ، وتنتظر الساعة الرهيبة الفاصلة !

وفجأة دقت الساعة عشر دقات متزنة باترة ، فأشرق وجه سونيا ، واندفعت نحو النافذة الكبيرة ، ونحت ستارها ،

ومضت تسرح الطرف فى الشارع المتألق ، الزاخر بحركة العرس ، المائج فى جلبة الأنغام ..

وشاع الطرب فى نفسها لحظة ، ولكنها سرعان ما ذعرت وهاجها الضجيج ، فخيل اليها أن القدر سيغدر بها وأن انتقامها قد يفلت منها ، فتحولت نحو اكتافيو وصاحت :

ـ أين ؟ .. أين تركت أختك مرجريتا ؟

فبهت الشاب وأجاب :

ـ لعلها فى البيت .. أو لعلها خرجت .. لا أدرى !

فضمت سونيا أسنانها وتمتمت :

ـ خرجت ؟ .. أتظن ؟ .. والى أين ؟

وامتقع وجهها ، ثم ضحكت ، ثم قالت فى سخرية وخبث وهى مستغرقة فى الضحك كمعتوهة :

ـ ربما .. ربما خرجت لتلحق بك الى هنا !

فذهل الشاب وقال :

ـ هى ؟ .. مستحيل !

فدارت سونيا على نفسها ، ومطت ذراعيها ، وتثنت متأوهة ، وعادت تضحك وهو يتفرس فيها قلقا متحيرا متعجبا ..

وعندئذ حانت منها التفاتة الى الشارع فانتفضت ، اذ أبصرت فى الفرجة المستطيلة الممتدة بين المقاعد والبيوت شبحا تعرفه .. شبحا يتقدم صوب البيت حاثا خطاه ، فاختنقت الضحكة فى صدرها ، وكرت راجعة ثم قالت للشاب وهى ترتعد :

- ابق هنا ريثما انضو عنى ملابسى ! .. لا تخرج ! .. لا تتحرك ! لحظة واحدة ! .. لقد جئت معى بالثوب الأحمر المكشوف ! .. الثوب الذى أخفيته عن زوجى ! .. الثوب المطرز البديع الذى أعربت لك عن رغبتى فيه ، فتحديت مرجريتا وهورتانس ، وابتعته لى أمامهما ، فكان أول هدية رائعة منك ! .. سأرتديه الآن من أجلك ! .. وسأكون لك حسب وعدى يا حبيبى !

وانسلت من الغرفة وأوصدت خلفها الباب ..

وظل أوكتافيو وحيدا ، مشرئب العنق الى طيفها ، يرقب مقدمها ويعلل النفس بالنعمة الشاملة ، والمتعة الكاملة ، والنشوة الغامرة ..

***

من هو أوكتافيو هذا ؟ وكيف يمكن أن تحبه سونيا ؟ .. انه شباب نزق طائش غر ، متقلب الأهواء ، متلون العواطف والميول .. انه صورة حية لأخته ! .. لمرجريتا ! .. للمرأة التى تبغضها سونيا أشد البغض ، وتتمنى على الله لو عاونها القدر ، فاستطاعت أن تنكل بها أفظع تنكيل !

لقد كانت هذه المرأة أعز صديقاتها ، ومع ذلك فقد خدعتها ! .. اندست فى بيتها ! .. تغلغلت فيه ! .. انتشرت فى محيطه كالوباء ! ثم أوغرت على سونيا صدر زوجها أرماندو ، ثم سحرته بدلالها ، واقتنصته بخلاعتها ، ثم سلبت عقله وقلبه وضميره ، ثم راحت تمعن فى ابتزاز ماله ،

متأبية عليه ، جامدة مستكبرة متحفظة ، يضاعف صدها حب الرجل ، ويلهب فيه عوامل الحسرة واليأس والجنون !

والحق أن أرماندو أبغض زوجته سونيا منذ أن عشق صديقتها مرجريتا أخت أوكتافيو ، منذ أن عشق تلك الأرملة الصبية القاسية الفاتنة ذات الجمال الحر المستباح !

ولقد حاكت سونيا فى صبر واصرار خيوط مكيدتها !

مشت اليها بعزم راسخ وفكر ثابت ، وارادة لا تعرف التردد ولا يمكن أن تنفذ اليها الرحمة !

عين بعين وسن بسن !

خديعة بخديعة ورجل برجل . وكما سلبت منها مرجريتا قلب زوجها أرماندو ، أرادت سونيا أن تسلب من مرجريتا حياة شقيقها أوكتافيو !

وكان أوكتافيو وهو الشاب الشهوانى الضعيف ، مولعا بفتاة تدعى هورتانس ، فتاة قوية الخلق ، حادة المزاج ، مشبوبة العواطف ، متكبرة غيور ، لا تصفح عن هفوة ، ولا تغتفر اساءة ، ولا تسكت على نكث العهود . وكان منجذبا اليها بسحر شخصيتها ، يحبها اعجابا بما فيها من قوة ، وينشد فى حبها تلك القوة الخلقية الرائعة التى تنقصه . وكان قد وعدها بالزواج وخطبها بالفعل ، فما زالت به سونيا ، تحوم حوله ، وتفتن فى اغرائه ، وتستدرجه وتستمهله وتعذبه ، حتى تمكنت منه فتحول اليها ، ونبذ هورتانس ، ثم تبعها ، تبع سونيا ملهوفا متحرقا صاغرا ، الى هذا البيت كى يحظى بها ..

وها هو ذا ينتظر على أحر من الجمر ! ٠٠ ينتظر سـونيا فى هذا البيت المظلم البعيد المـأمون !

وتحامل على نفسه ونهض وهو يلهث٠٠ نفد صبره وتوترت أعصابه وهم بأن يفتح الباب وينادى سـونيا ، ولكنه تريث امتثالا لأمرها وانتظر ٠٠

وشيئا فشيئا رابه السكون الشـامل المحيـط به وأثار هواجسه ٠ ولكن مم يخاف ؟ ٠٠ أهل الحى جميعا قد انصرفوا الى العرس ، والبيت منعزل ، وصاحبته قد خرجت وتركت لهما المفاتيح ٠٠ ولكن أين هى ؟ ولمـاذا لا تعود ؟ !

وهاجه طول انتظاره ، وبرح به ارتقاب متعته ، فلم يستطع صبرا ، واندفع نحو الباب وصرخ ٠

وفى تلك اللحظة ، اهتز الباب وفتح مصراعـه فى عنف ، فتراجع أوكتافيو مخبلا مذهولا ، اذ أبصر نفسه أمام خطيبته هورتانس وجها لوجه !

* * *

ودخلت الفتاة ممسكة بيدها ثوبا أحمر قاتما مرصعا بزهرات صغيرة بيضاء ، ثم ألقت الثوب على مقعد وتقدمت بخطى ثابتة، وقالت فى هدوء وعيناها تلمعان :

ـ ثوب من هذا ؟ !

فارتعد الشاب ولم يحر جوابا ، فأردفت :

ـ ثوب المرأة الشريفة التى توهمت أن فى مقـــدورك أن تصبح عشيقها !

فدفعها بكلتا يديه وصرخ :

– **أخرجى !**

فتملصت منه واهتز رأسها الشامخ الأبى وقالت فى سكون وهى تحدق اليه :

– لن أخرج الا وأنت معى !

فهتف : « محال » .

فقالت وبصرها مثبت فيه :

– **نحن هنا وحدنا وانت الآن تحت رحمتى ! لقد ذهبت سونيا ولن تعود !**

فتطلع اليها مذعورا وغمغم :

– ماذا تقولين ؟ .. ما الذى جاء بك الى هنا ؟

فأجابت وهى تهدر :

– سونيا نفسها !

ففغر فاه كأبله وحملق فيها مستفسرا فاستطردت :

– لقد أوقعتك فى حبائلها ، ولما استوثقت من ضعفك وخضوعك اقتادتك الى هنا ، بعد أن أرسلت الى خطابا غفلا عن التوقيع عينت لى فيه موعد الاجتماع ورقم البيت ، واسم الشارع .. هى ... هى التى أرسلت الخطاب اذ من المستحيل أن يكون قد فطن الى علاقتكما شخص غريب يهمه أن أعرف الحقيقة! **هى التى أرسلت الخطاب ! أرادت أن أفاجئك متلبسا بخيانتك! أرادت أن تثير فى نفسى غيرتى الجنونية عليك ، أرادت أن أتأكد من انك تحبها هى وانك لم تهجرنى الا لتتبعها !**

ولقد استشعرت المكيدة حالما تسلمت الخطاب ، وعندما

وصلت الى هنا ازداد يقينى ، لا سيما وقد وجدت ثوبها الأحمر الذى تركته عمدا قبل أن تفر ..

وصمتت لحظة ثم أردفت :

— تعال ! .. تعال ابحث عنها ! أهى هنا ؟ ... أيمكن أن يكون أحد هنا ؟ انظر .. انظر الى باب الحديقة .. انه مفتوح . لقد خرجت منه وانسلت من العطفة المظلمة وتركتك هنا !

فصاح أوكتافيو وهو كالتائه :

— ولكن ما مراد سونيا ! لماذا ، لماذا فعلت ذلك ؟ !

فأجابت هورتانس بصوت غائر اجش :

— لكى أقتلك !

فتراجع الشاب حيال نظراتها ، وطغى عليه شعور مفاجىء قوى بأنها قد تكون صادقة .. فقال مستهولا وهو يزفر :

— ولكن هذا انتقام ! .. لماذا تريد سونيا أن تنتقم منى ؟

فعاجلته هورتانس بالعبارة الهائلة التى هوت على رأسه كضربة مطرقة :

— لأن أختك مرجريتا عشيقة زوجها !

فصرخ أوكتافيو وهو يرفع كفه ليلطمها :

— اصمتى والا كنت أنا قاتلك !

فأقصت ذراعه عنها فى هدوء وقالت :

— هذه الثورة .. ثورتك نفسها ، تدل أبلغ الدلالة على أنك كنت تعلم أن أختك عشيقة زوجها ، أو أنك على الأقل كنت تشعر ولا تريد أن تعلم ! أجل .. كنت تعلم ، ولكنك آثرت أن تغض الطرف عن مسلك شقيقتك وعن عارك لتمضى

فى حبك ! ·· تجاسر ، تجاسر على الانكار لو استطعت !

فتأوه وجأر ، ثم انهارت أعصابه بغتة ، وطفرت من عينيه الدموع !

فدنت منه وطوقته بذراعيها وغمغمت :

– أنت تتألم لا لاحساسك بالعار فقط،بل لشعورك بأنك كنت آلة فى يد سونيا !·· لقد خدعتك وعذبتك واستخدمتك· لأنها لم تحب أبدا غير زوجها ! ولكننى سأنقذك منها بدل أن أنتقم لها فى شخصك ! سأنقذك واحتفظ بك ولا أتخلى أبدا عنك !

وانحنت عليه وهمت باحتضانه ·· ولكنه تملص منها فى غلظة ودفعها فى عنف وصرخ :

– انى أكرهك ! أكرهك لأنى واجهت الحقيقة على يديك !

فأرتمت عند قدميه وأحاطتهما بذراعيها وجعلت تقبلهما وتقول :

– انى أحبك يا أوكتافيو ·· فارحمنى ! لا تنبذنى وعد الى ·· أنا وحدى التى أحبك !!

فركلها بقدمه فى قسوة وصاح :

– أنت قاتلة خيالى وأنا أبغضك !

فنهضت مسلوبة الحول طائرة اللب ، وقالت وهى ترتجف سخطا وحنقا وغيرة :

– اذن فلن تعود الى ؟

فأجاب : « ولن أتخلى عن سونيا أبدا ·· سأظفر بهـا ثم اقتص منها بأن أنبذها جزاء لها على تغريرها بى !! »

فقالت هورتانس وهى تعض شفتيها : « أهـذا هو رأيك الأخير ؟ »

فهتفت : « وعزمى الأخير ! »

فشخصت اليه طويلا ثم رمقته بنظرة صارمة شزراء ، ثم قالت وهى تشمخ برأسها فى اباء وعزة :

ـ أنت لا تشعر بالمذلة اذن ولا بالعـار ! وبدل أن تحتفظ بكبريائك وتصون نفسك عن امرأة موتورة تعلم علم اليقين انها لا تحبك بل تبغضك ، تسعى اليها وتجد فى أثرها طلبا لشهوتك ! انت رجل ضعيف ! ٠٠ رجل وضيع ! انت تشبه أختك تماما ! انت تمالئها على سلوكها الشائن حرصا على مصلحتك ! ٠٠ أنت فى صميم نفسك مسرور ! ٠٠ مسرور لأن أختك عشيقة زوج سونيا ! مسرور لأن أختك تحول نظر الزوج عنك وتمكنك من الانصراف الى امرأته آمنا مطمئنا !

وفتحت حقيبة يدها وأخرجت منها مسدسا ألقته على منضدة صغيرة وأردفت :

ـ بهذا كنت سأقتلك لو لم تتبعنى ! بهـذا كنت سأنتقم لنفسى ولسونيا على السواء ! أما الآن فأنت فى نظرى أضأل وأحقر من أن أحبك ، وأضأل وأحقر من أن أعاقبك ، وأرتكب جريمة لأحرم غيرى منك ! ٠٠ عد اليها ! ٠٠ الوداع !

واستدارت وخرجت متجهـة نحو باب الحديقة الخلفى ، فهم أوكتافيو باللحاق بها ، ولكنه أحس ذلة هائلة ، وهوانا ممزقا يستحوذ عليه ، واستنكارا يسحقـه ويشوش ذهنه ويسمره فى الأرض ٠ كبر عليه أن تحتقـره تلك الفتـاة ٠ أن تعيره

بضعفه . أن توطن العزم على قتله ثم تأنف آخر الأمر وتعفو عنه ، فأرسل أنة طويلة ولبث شاردا جامدا لا يتحرك .

وعندئذ ماج العرس فى الخارج ، واشتدت الضوضاء ، وسمع هدير كهدير البحر الصاخب ، فاهتاجت أعصاب أوكتافيو ، وعدا نحو النافذة ليوصدها . واذ ذاك ، وفى مثل لمح البرق ، أبصر طيفا ! .. طيف امرأة .. امرأة أخرى ... امرأة يعرفها ، تتقدم فى الفرجة المستطيلة الممتدة بين المقاعد والبيوت ، حاثة خطاها متجهة صوب البيت ، فاقشعر بدنه وجحظت عيناه وتقهقر ..

أراد أن يفر . أراد أن يتحرك . أراد أن يخرج من باب الحديقة الخلفى لاحقا بهورتانس . ولكن شيئا قويا .. شيئا أقوى منه ، استبد به وتسلط عليه وأبقاه حيث كان . فلم يشعر الا وهو تجاه الطيف .. تجاه شقيقته !

وتقدمت اليه بقامتها المشدوقة وبدنها الناضر ، وعينيها السوداوين الوقحتين ، وصاحت به ملوحة بورقة فى يدها وهى ترعد :

– أين سونيا ؟ .. أليس هذا هو ثوبها ؟ أين هى ؟ .. جاءتنى هذه الرسالة من مجهول فعلمت منها أنك مع سونيا هنا ، وأن هورتانس ستباغتكما ، فجئت لأنبهك وأنبه سونيا !

.. ولكن أين هى ؟ .. وكيف ، كيف استولت عليك بمثل هذه السرعة ؟ .. انها لماهرة ! لقد أحبتك واتصلت بك ، لالشىء الا لأن زوجها اتخذ عشيقة وأهملها ! .. انى لأشكر الظروف التى خدمتك !

فأنقض أوكتافيو على أخته وأمسك بذراعهـا ، وقال وهو يطوح بها دون وعى وقد أثاره نفاقها :

ــ أنت ٠٠ أنت عشيقة زوجها ! ٠٠ وهى ٠٠ سونيا ٠٠ هى التى دبرت المكيـدة لتنتقم منك فى شخصى ! ٠٠ بعثت اليك بتلك الرسالة لتشهـدى مصرعى ٠ وبعثت بأخـرى لهورتانس كى تثأر من خيانتى وتقتلنى ٠ ثم فرت بعـد أن تركت ثوبها الأحمر برهانا ساطعا على وجودها معى وعلاقتهـا بى ! ٠٠ فجاءت هورتانس الى هنا ، عازمة ساخطة ثائرة ٠ وكان فى نيتها بالفعل أن تقتلنى ٠ ولكنها انصرفت بعد أن أذلتنى ، وأصابتنى فى كرامتى وشرفى بما هو أشد هولا من الموت ! ٠٠ بيد أنى لن أرضى أن أعيش بعد اليوم محقرا مهينا، يجللنى العار ؛ لقد عزمت ٠٠ عزمت أن أسترد كرامتى ! ٠٠ أن أخنق حبى بيدى ! ٠٠ أن أفوز باحترام الناس وتقـدير هورتانس ، لا لى وحدى ؛ بل لى ولك ولأفراد أسرتنا جميعا! ٠٠ أفاهمة أنت ؟

فتطلعت مرجريتا اليه مستغربة وقالت :

ــ ما معنى ما تقول ؟

فأجاب فى نبرة قاطعة :

ــ أنا سأتخلى عن سونيا ، وأنت منذ السـاعة يجب أن تقطعى كل علاقة لك بزوجها !

فصرخت المرأة مستكبرة متحدية :

ــ ولكنى أحبه ! ٠٠ وليس فى العالم أية قوة يمكن أن تحول بينى وبينه !

واندفعت نحو الباب ، فلحق بها أوكتافيو ، فالتفتت اليه ثم غمزت بعينها وهمست :

– وماذا يهمك أنت ؟ .. تمتع بقرب سونيا ! .. سأساعدك ! .. الزوجة لك والزوج لى !

فغشى الدم وجه أوكتافيو ، وذكر كلام هورتانس وارتعش . هالته وقاحة شقيقته ، فحدق اليها ولكنه لم يرها .. لم ير أمامه غير امرأة !.. امرأة غريبة !.. امرأة لا تمت اليه بأية صلة ! .. امرأة فى محض وجودها ما سوف يغمره بالعار والذل الى الأبد . فأمسك بذراعها ، فنحته عنها ، فتشبث بها فتملصت منه ، فانقض عليها فجأة وضربها بزهرية كبيرة من نحاس كانت موضوعة بجوار النافذة على قاعدة من خشب . فجاهدت المرأة كى تنهض وتصرخ ، ولكن صوتها الناعم الماكر الخبيث، صوتها الحاد المتبجح المثير، تحشرج فجأة واختنق، فأرخى أوكتافيو ذراعيه ، فترنحت مرجريتا وانهارت على الأرض .. جثة هامدة !

وكانت قد تعالت الصيحات فى الخارج،وارتفعت التهاليل، ودوت أصوات المدعوين بالهتاف احتفالا بمقدم العروس ، فانخلع قلب أوكتافيو ، وملكه الرعب ، وخيل اليه أن الناس يتقاطرون عليه ، وأن الجو قد غص بهم ، وأن الغرفة قد امتلأت بالأذرع والأكف والقبضات والعيون . فتاه فكره ، وأوشك أن يسقط ، ولكنه لم يكد يتحول ويبصر الجثة ، حتى جاش سخطه ، فهدأ من سورة نفسه ثم أسرع فأشعل الموقدة وأحرق الثوب الأحمر ، ثم قفز الى فناء الدار ، ومرق

من باب الحديقة الخلفى ، ومضى يركض فى العطفة الساكنة المظلمة عساه أن يلحق بهورتانس ..

ولما استقبلته أضواء الشارع الكبير ، حانت منه التفاتة ، فلمح هورتانس تنتظر عند محطة الأوتوبوس ، فتريث لحظة وتنفس ، ثم انطلق توا اليها ، وجذبها من ذراعها ، وكر راجعا بها الى العطفة المظلمة وهى تحملق فيه مبهوتة . وهناك انحنى عليها ، وصب فى أذنها هذه الكلمات :

- لقد تم انتقام سونيا على يدى ! .. هكذا أراد عدل القدر ! .. أنا .. أنا قتلت أختى ! .. ولن أرى سونيا بعد اليوم !

وحدق الى الفتاة وأردف :

- أعتقد الآن أنى أصبحت فى نظرك رجلا قويا وشريفا !

وقبل أن تتنبه ، وقبل أن تصرخ ، ضمها الى صدره فى عنف وقبلها ، ثم تملص منها ، وطفق يعدو كمعتوه ، حتى صادف سيارة فاستقلها ، وذهب من فوره ، هادئا ثابتا مرتاحا ، وسلم نفسه للبوليس !

***

ولما جاء يوم المحاكمة ، اعترف أوكتافيو بأنه انما قتل شقيقته دفاعا عن شرف أسرته . ولكنه أبى أن يذكر شيئا عن الرسائل الفاضحة ، كما أبى أن يذكر اسم سونيا وأن يلوث سمعتها أو سمعة زوجها ، فقدر القضاة موقفه والتمسوا له الظروف المخففة وحكموا عليه بالسجن عشرة أعوام .

أما هورتانس فقد وقع الحكم عليها وقع الصاعقة ، ولكنها أبت الا أن تقــاوم وتحتمل وتكون وفية ، فالتحقت بخدمة بعض الراهبات فى أحد الأديرة ..

وهى ما تزال فى الدير حتى اليـوم ، تشتغـل وتصلى ، وتنتظر فى سكون وصبر ، موعد الافراج عن حبيبها .

فاجعه فى الملعب

كانت المركيزة « فلوريا » أرملة ثرية فى نحو الأربعين من عمرها ، مديدة القامة ، ناهدة الصدر ، سوداء الشعر والعينين، ذات جمال ناضج ساحر خلاب ، تملك فى احدى القرى الايطالية ضياعا واسعة ، وتعتبر الفلاحين عبيدا لها ، ويعتبرها الفلاحون سيدة قريتهم والمتحكمة فى مصائرهم بعد الله !

وكان قد هبط القرية « سرك » جوال ، فأكرمت المركيزة وفادته ، وأفسحت له رقعة كبيرة من أرضها ، حط رحاله فيها .

ففى تلك الليلة كان رجال السرك ونساؤه يتأهبون لأحياء حفلة كبيرة ، وينتظرون هم وأهل القرية مقدم المركيزة « فلوريا » .

ونفد صبرهم وأوشكوا أن يبعثوا برسول يستفسر عن السيدة العظيمة . وفجأة سنمع طرق شديد على أسطوانة نحاسية كبيرة مثبتة فى صدر الملعب . فتنفس الجمهور وهدأ وأيقن أن السيدة قد أقبلت ..

ودخلت المركيزة فلوريا حلبة السرك ، منصوبة القامة ، شامخة الرأس ، ترفل فى ثوب حريرى أحمر مرصع بزهرات كبيرة سوداء ، وحنت رأسها مبتسمة تحيى الجماهير . فنهض القرويون كأنهم رجل واحد ، ولوحوا بأذرعهم ، وهتفوا

للسيدة العظيمة هتافا طويلا ، بينما كانت تسير بخطى متزنة وئيدة وتتجه نحو مقصورتها المجاورة لقفص الوحوش ..

وكان السرك غاصا بالنـــاس ، يعج عجيجهم ، وتختلط أصواتهم بزئير السباع والنمور ، يحرسهـا رجـل مدجـج بالسلاح ، وقفت بجواره غادة ممشوقة القد ، ممسكة بيدها سوطا كبيرا تلوح به الآونة بعد الأخرى ، وهى تتبع المركيزة فلوريا النظر ، وتحدق اليها بعينين زائغتين تائهتين ..

وانقضت لحظة ثم دخل الحلبة البهلوان الرائع الجمـال ، الذائع الصيت « كارلو » . فصفقت الجماهير تصفيقا متواصلا ، فانحنى البهلوان وحياها ثم أسرع واعتلى خشبة صغيرة معلقة بحبلين مشدودين الى سقف الملعب ، وطفق يتطـوح يمنـــة ويسرة ، وينقلب عاليه سافله ، ويقوم فى دقة رائعـة ومهارة خارقة بألعاب غريبة مدهشة أثارت اعجاب الجماهير .

وظـل ينقلب فترة ويتطوح ويندفع الى سطح الملعب وهو يدور حول نفسه كأنه طائر خرافى يشق أجواز الفضـاء .. ثم تراخت أعضاؤه بغتة ، وهبط بالحبـل الى الأرض ، ومد ذراعه المفتولة القوية ، واختطف الغـــادة الهيفاء « ماريا » . فأسرعت وتعلقت به ، واعتلت خشبة مواجهة ، ومضت تقوم فى صحبته بألعاب منقطعة النظير ، تمثـــل عاشقين معذبين ضاقت بهما فسحة الدنيا ، فأعرضا عنها وطلبا الخلاص فى رحبات الفضاء الشاسع وتحت وهج الأضواء الساطعة ..

وما أن أتم كارلو وماريا دورهمـــا التمثيلى البديع ، حتى دوى الهتـــاف فى الملعب ثم احتبست أنفـــاس الجماهير ،

وأشرأبت أعناقهـا ، وتطلعت الى ماريا التى أفلتت بغتـة من بين ذراعى كارلو ، ولوحت بسوطها المستطيل ، وهبطت الى الأرض ، ثم نفذت لفورهـا الى قفص الوحـوش ، وشرعت تروضها ..

وساد صمت زافر عميق ، وتحولت الأبصـار الى ماريا ، فانحنت المركيزة فلوريا ، جاحظة العينين ، ملتوية الشفتين ، لاهثـة وملهوفة ، وشخصت الى القفص المرهوب ، **وطفقت تتأمل حركات ماريا ، وتنعم النظر فى وثبـات الوحوش ، وتتمنى على القدر لو أن أسدا هائجـا أو نمرا غادرا ، غافل المروضة الشابة ، وانقض عليها فجأة ، وانشب فى صدرهـا العارى مخالبه ..!**

ولكن ماريا الحاذقة المجربة ، تمكنت من اخضـاع رهط الضوارى المحيط بها ، فأقعت الأسود أمامها ، وترامت النمور عنـد قدميهـا ، واستوت هى واقفـة ، وتحولت ، وحيت الجماهير . فقصفت الصرخات كالرعد ، ومزق هذا النجاح الرائع قلب المركيزة .. فانكمشت فى مقصورتها ، واصطنعت الاعجاب والفرح ، ورفعت يديها المكسوتين بقفازها الأسـود الجلدى ، وابتسمت لماريا وصفقت لها ..

* * *

وهدأت حركة الملعب ، وانصرف الجمهور شيئا فشيئـا ، ودخل أفراد السرك مقصوراتهم ، وارتموا على أسرتهم منهوكين واستغرقوا فى النوم ..

وكانت ماريا راقدة بجوار زوجها كارلو ، تغط غطيطا متعاقبا ، وتختلج لحظة بعد أخرى كأنها تحلم • أما هو فكان مستيقظا •• كان يراقبها •• كان يريد أن يستوثق من أنها قد استغرقت تماما فى سباتها • ولما اطمأن ، تحول عنها ، واستجمع قواه ، وانكمش ما استطاع ثم انسل من الفراش ، وانتعل حذاءه ، ومشى على أطراف قدميه ، وخرج فى الظلام الدامس متجها نحو قصر المركيزة القريب من الملعب ، حيث كانت تنتظره فى حديقتها ، منزوية فى خميلة كبيرة ، وممددة على مقعد خشبى مستطيل تتهدل عليه الأغصان •

وما أن أحست به مقبلا حتى برزت اليه ، وطوقته بذراعيها ، وجذبته الى جوف الخميلة ، وأوسعته ضما وتقبيلا فاستسلم لها فترة ، وأوشك أن يفقد صوابه • ولكنه سرعان ما ارتد الى نفسه ، وتملص من المرأة ، وأقصاها عنه ، وقال فى صوت خفيض وهو ينظر اليها بعينين بائستين متوسلتين :

– ليس فى مقدورى أن أفعل هذا يافلوريا ! •• هذا فوق طاقتى ! •• أى ذنب جنته تلك المرأة كى أحاول التخلص منها على هذه الصورة ؟! •• فى وسعى أن انفصل عنها ، أن أطلقها ، أن أتحرر منها واتبعك ! •• ألا يكفيك هذا ؟ •• لماذا تصرين على ارتكاب الشر يافلوريا ؟

فنظرت اليه المركيزة من خلال أهدابها الطويلة نظرة ملؤها الزراية والاحتقار ، وغمغمت وهى تبتعد عنه وتنطرح على المقعد الخشبى :

ـ ما أشد جهلك بأخلاق النساء يا كارلو ٠ بل ما أشد جهلك بسلطان الحب ومطالبه ٠٠ الحب يا كارلو خيال رائع٠ وهذا الخيال يجب أن يظل على الدوام جميلا ، ويجب أن يظل على الأبد صافيا ونقيا ، والا تقلص الحب ومات !٠٠ فكيف تطلب الى أن أحبك ، وخيالى يمثل لى تلك المرأة قائمة بينى وبينك ، ويوسوس لى أنك قد تعود يوما اليها ، أو قد تفكر ساعة فيها ، أو قد تندم لحظة على أنك تخليت عنها من أجلى!٠٠ كلا ياكارلو ٠٠ أنا أريدك لى وحدى ٠٠ أريد أن أطمئن فى صحبتك على حبى ومستقبلى ! ٠٠ فمتى اختفت تلك المرأة ، وثقت فيك ، وركنت اليك ، واحتفظت بروعة الخيال الذى صغته من حبك ومنك ، ولم أعد أخشى عليك الا من وطأة الذكرى ٠٠ ولكن الذكرى لابد أن تموت مع الزمن ٠ وعندئذ تستحيل أنت الى رجل آخر ، وتصبح لى وحدى ! ٠٠ أفهمت ؟

فقال كارلو وهو يرتجف :

ـ وكيف يمكن أن أنسى الجريمة ؟!

فهتفت فلوريا :

ـ الحب يخنق كل شىء ، ويجدد ويبعث كل شىء ! ٠٠ فاستنهض عزيمتك ، والهب رجولتك ، وفكر فى المستقبل ، ولا تتردد ٠٠ ولو تشجعت وأقدمت ، فلن تكون بعد اليوم مسخا ومهرجا ٠ لن تكون بائسا وصعلوكا ٠ لن تكون شريدا وجواب آفاق ، بل ستكون سيدا غطريفا يعيش فى قصر منيف، ويبسط سلطانه المطلق على امرأة أعتقد أنها خليقة بالعظائم !

وعادت ترقبه من خلال أهدابها الطويلة وتغمغم :

ـ أما زلت مترددا ؟

فتشبث بها ، وجعل يتحسس بيديه المتشنجتين وجهها وذراعيها ، ثم خارت قواه فسقط على المقعد وقال :

ـ لا أستطيع ! .. لا أستطيع !

فتقبض وجهها ، واتقدت عيناها ، وشاعت فى صوتها غلظة قاسية مفاجئة ، وصاحت به وهى تومىء باصبعها الى باب الخميلة :

ـ اذن فاخرج ! .. وداعا !

فأجفل كارلو وذهل . ولم يتحرك . جمد فى مكانه وظل يلتقط أنفاسه وهو يجيل الطرف حوله كمعتوه . ثم استقر ببصره على المرأة . فألفاها باهرة الحسن ، شائقة الفتنة ، صارخة النداء ، فزايلته قوته ، وتاه عن صوابه ، وعض على شفتيه المتلويتين ، وصرخ :

ـ ولكننى لم أظفر منك بشىء ! .. لم أفز منك حتى الآن بأى شىء ! .. فكونى لى .. كونى لى أولا وأنا أقدم بعد ذلك على كل شىء !

واندفع نحوها . فصدته عنها فى عزم وقالت :

ـ أنا ثمن رجولتك ! .. كن رجلا أصبح لك مدى الحياة !

فحنى رأسه كالعبد الذليل ، واستشعر فى الوقت نفسه قوة خارقة عجيبة لم يعهدها كيانه أبدا . فأمسك بذراع فلوريا وصاح :

– اتبعيني ! ·· اتبعيني الآن ! ·· الكل نيام ·· وامرأتي لن تستفيق الا عند الفجر ·· لن تذوق بعد الليلة طعم الرقاد الهنيء ! ·· فاتبعيني أنت ، والبثي بقربي ، وشجعيني ، عسى أن يكون في مقدوري أنا أن أذوق في المستقبل طعم الرقاد ! ·· اتبعيني !

وجذبها من ذراعها وانسل بها الى الخارج ثم دخلا الملعب المظلم ، وانسابا في طرقاته ، وبلغا المقصورة التي ترقد فيها ماريا · فتراجعت المركيزة ، واحتجبت خلف احدى الخيام ، ونفذ كارلو الى المقصورة ، وانحنى على امرأته ومضى يتفرس فيها ··

وكانت في نومها العميق ساكنة هذه المرة وهامدة · كانت كأنها ميتة · كانت كأنها قد انسلخت عن العالم بمحض اختيارها ·· فانحنى كارلو أيضا عليها ، وارتعدت فرائصه ·· أممكن هذا ؟ ·· أممكن ؟ ·· نعم ممكن ! ·· ممكن وميسور وسريع ·· ولكن هذا اليسر نفسه يرجف اليد ، ويذهل العقل ، ويصيب الرأس بالدوار ! ·· **كلا ·· محال ! ·· ان ماريا بريئة ! ·· انها تحبه وتخلص له ! ·· أنها تعيش وتكافح من أجله ! ·· لم تغضبه يوما · لم تخدعه يوما · لم تنظر أبدا الى رجل سواه ! ·· لاذنب لها الا وجودها ! ·· لهذا تبغضها فلوريا وتريد ان تثأر منها ! ·· ولكن هو ؟ ·· هو ؟ ·· ماذا يفعل ؟** ·· لو أبقى عليها فسيفقد فلوريا ، ولو فقد فلوريا فسيفقد الحب والمال والسطوة والجاه العريض ،

ويتردى اما فى ظلمة الجنون واما فى هاوية الانتحار ! ..
يجب أن يفصل .. يجب أن يقطع .. يجب أن يختار !

وتقلبت زوجته على فراشها بغتة ، وأرسلت أنة مستطيلة كأن شيئا يؤلمها وكأنها على وشك أن تصحو . فانخلع قلبه وهم بأن ينثنى ويعدل . ولكن جثمان المرأة عاد فانبسط وتراخى وقر واستراح . فلمعت عينا كارلو ، وتشجع ، وتمثل له طيف فلوريا ، مقبلا عليه ، فاتحا ذراعيه له ، مذكيا جذوة القوة فيه ، ناثرا عليه مفاتن الحب ومباهج المال كأمطار من ورد وذهب . فضم قبضتيه ، وتحفز ، وتراجع تائها مخبلا محموما .. ثم مرق من الباب ، وعرج على الخيمة التى كانت تحتجب خلفها فلوريا ، وأمسك بذراعها ، ودفعها أمامه فى صمت واتجه بها صوب مقصورة بعيدة ملئت بمختلف الأدوات الحديدية التى تستخدم فى تركيب الحبال، وتثبيت الأخشاب، ونصب الخيام ، واقامة دعائم السرك .

وكان الحارس مستغرقا فى نومه ، فغافله كارلو ، وانسل الى المقصورة ، وانتزع من خزانة كبيرة سكينا صغيرة حادة النصل ، أخفاها فى أحد جيوبه ثم كر راجعا الى فلوريا ، واقتادها من ذراعها ، وسار بها نحو الملعب ، ميمما وجهه شطر الحبال التى اعتاد أن يتسلقها ، ويقوم عليها بألاعيبه هو وزوجته ماريا ..

وكان محرما على أى فرد من أفراد السرك أن يدخل تلك المقصورة ، أو يجلب منها بدون اذن أية أداة حديدية أو أى سلاح ، خشية أن يدب بين أعضاء الفرقة نزاع طارىء ،

يستخدمون فيه تلك الأدوات أو الأسلحة ، فيتعطل عمل السرك وتلغى رحلاته ويستهدف صاحبه لأقسى العقوبات ..

وكان كارلو يعلم كل هذا . كما كان يعلم أن جميع أهل القرية يعرفون القواعد والنظم المتبعة فى السرك ، ومع ذلك فهو لم يحفل . لم يكترث . ومضى فى صحبة فلوريا الى ساحة الملعب ،وأسرع فتسلق بعض الحبال ثم تحسسها فى الظلام الدامس ، ثم جذب اليه الحبل الذى يجب أن تجرى عليه ماريا فى الغد ألاعيبها ، وشرع يقرضه بالسكين وهو يلهث .. !

ولما أتم عمله وهبط الى الأرض كان كالشارب الثمل ، يتطوح يمنة ويسرة وهو لا يعى . فتلقته فلوريابين ذراعيها ، وعانقته فى عنف ، ومالت اليه وهو ذاهل ، وطبعت على فمه قبلة طويلة حارة . فتملص منها فى رفق ، وقال وهو يبسط اليها يديه المرتعشتين :

— دعينى أنم فقد انهارت قواى ! .. غدا يتحقق حلمك ، ويصفو خيالك ، ويتم عليك القدر نعمة حبك ، ويصبح كارلو لك وحدك ! .. اذهبى الآن .. من هنا .. الطريق مأمون .. وخذى .. خذى هذه السكين .. ابقيها معك .. انقذينى منها .. والى الغد .. الى الغد يا فلوريا !

فهتفت المرأة وهى تضم على السكين قبضتها :

— سأحتفظ بهذا السلاح رمزا لحبك وشجاعتك ! .. سأحمله فى صدرى ، وأظل حريصة عليه حتى يتم لى ماأريد وأستوثق من أنك قد أصبحت لى وحدى !

واستـدارت ، وهمت بالرحيـل • فخشى أن يضعف • فاستوقفها ثم حدق اليها لحظة ، ثم انقض بغتة عليهـا ، واحتواها بين ذراعيه ، وقبلها قبلة وحشية ظمأى ، واستدار حانى الرأس ، محدودب الظهر ، ومضى •• !

***

ولم يكد يدخل مقصـورته ويتمدد بجوار امرأته ، حتى تقلبت ماريا تقلبا متعاقبا ، وتأوهت ، ثم اختلج بدنها كله ثم استفاقت مذعورة ، وتطلعت الى زوجها ، وقالت وهى تتشبث به ، وتضمه الى صدرها وترتعد :

- أنت هنا ؟ ! •• حمدا لله ! •• لقد حلمت حلمـا غريبا ياكارلو ! •• كل ما يخيفنى فى يقظتى أراه رأى العـين فى أحلامى !

فرشقها بنظرة حادة مستريبـة ولم يتكلم ، فاستطردت صارخة وهى تنعم النظر فيه :

- أنت تحبها يا كارلو ! •• أنت تنبذنى من أجلها ! •• وهى •• هى •• تبغضنى وتطلب اليك أن تضحى بى وتتخلص منى ! •• رأيت فى حلمى أنها تساومك على حياتى ! •• ثم رأيت الموت منقضا على ، ممثلا فى صورة باشق مروع ، ما أن تأملته حتى لمحت فيه وجهك العزيز يا حبيبى ! •• فارحمنى ودعنى أعيش ! •• لقد أخلصت لك الاخـلاص كله ! •• أحببتك من صميم قلبى ! •• لا تنظر الى هذه النظرة الحاقدة يا كارلو ! •• ان نية القتل تبرق فى عينيك ! •• وهأنتـذا

على وشك أن تصبح قاسيا غادرا شريرا كتلك المرأة ! .. فاذهب اليها يا كارلو .. انعم بها .. ولكن دعنى أعيش .. فأنا مازلت فى شرخ شبابى ولا أريد أن أموت !

وترجرجت الدموع فى عينى ماريا ، فعجب كارلو لصدق استشعارها ونفاذ بصيرتها ، فتفطر قلبه وهم بأن ينفض عن كاهله عبء الجريمة ، ويصارح زوجته بكل شىء ويستريح . ولكنه أبصرها ضعيفة . أبصرها قلقة وحائرة وملتاعة . فأثار ضعفها قوته ، وأثارت توسلاتها غرائز الكبر والقسوة والشر التى ولدها فيه الحنق والحب . فاستحوذت عليه لذة عميقة ، لذة شائنة ، لذة منكرة ، هى لذة بطش القوى بالضعيف ، فألقى على امرأته نظرة ساخرة ، وربت على كتفها وهو يضحك . ثم طيب خاطرها وبدد هواجسها ، وقبلها . فاطمأنت اليه ، وانزوت بجمعها بين أحضانه ، وبادلته قبلة بقبلات ، وغمرتها نشوة الثقة والراحة ، فنامت فجأة بين ذراعيه ..

وظل ينظر اليها وهى نائمة ، وقد استفاض شعوره باللذة الخبيثة التى ملكته ..

وأحس أن امرأته قد استحالت الى طفل ، فتضاعفت اللذة فى خياله ، وتضاعفت قوة الشر فى قلبه ، فلم يجد أية غضاضة فى تحقيق حبه وسعادته على أشلاء طفل .. !

* * *

وجاءت الليلة التالية ، وغص السرك بالجمهور كالعادة ، ودخلت المركيزة فلوريا فى هذه المرة تختال فى ثوب وردى

اللون مفوف الصدر والأطراف بخيوط من ذهب ، مشرقة الوجه ، بسامة الثغر متألقة العينين • فحياها الجمهور وهتف لها • فاتجهت صوب مقصورتها المجاورة لقفص الوحوش • ولكن أسدا ثائرا مكروبا طفق يزأر فى وجهها زئيرا متواصلا• فانزعجت ، وتركت المقصورة • والكى تكبح عوامل قلقها واضطرابها ، وتثير اعجاب الجماهير بها ، وتقصى الشبهات عنها وتلوذ بقوة يمكن عند الحاجة أن تحميها ، تحولت فجأة الى الصفوف الخلفية ، واتخذت لها مكانا بين مقاعد الشعب • فأكبر منها القرويون هذ التواضع ، ورحبوا بمقدمها ، وهتفوا لها هتافا طويلا شكرتهم عليه بابتسامة رقيقة ساحرة ••

ولم يكن قد جاء بعد دور كارلو وماريا • فبدأت الألعاب تتعاقب ، وظلت المركيزة ساهمة واجمة ، تغالب اضطرابها جهدها ، وتنتظر على مثل جمر النار •

وفى تلك اللحظة كان كارلو منكمشا خلف ستار الملعب ، وحوله جموع المهرجين ، يغافلهم ويرقب فلوريا بعينين مشغوفتين ويرتجف ••• وكانت فى ثوبها الوردى المفوف جميلة جمالا يخلب الألباب • كانت كأنها ملكة مهيبة وقادرة وعاتية وعزيزة المنال • فلبث يتأملها ، ويتأمل نفسه ، ويعجب لهذه المخلوقة العظيمة كيف ميزته هو المهرج الصعلوك ورضيت به عاشقا وحبيبا •• !

وأطربه ايمانه بها ويقينه الراسخ من حبها ، وثقته الكاملة المطلقة فيها ، فصعر خديه زهوا وخيلاء ، واضطرمت كبرياؤه

واجتاحته . فلم يعد يذكر الفعلة المروعة التى ارتكبها ، أو يفكر فى ماريا ، أو يكترث لقيمة حياتها ، أو يخطر على باله لحظة واحدة أن يتنبه ويلتفت وينظر اليها .. !

كان مستغرقا فى حلمه ، سادرا فى أمله ، ضائعا فى غمرة تحرقه ولهفته ، يحدق الى فلوريا كما يحدق الضال الى واحة ، والظمآن الى ينبوع ، والغريق الى حطام ..

وكانت ماريا واقفة بالقرب منه ، تلحظه بعين ثابتة ولا تتكلم ..

كانت الغيرة تنهشها ، واللوعة تبريها ، والحسرة تمزق قلبها .

كانت شاحبة وضامرة ومتهالكة .

كانت معتصرة وخاوية ومنسحقة .

كانت قد استحالت فى بضع لحظات الى شبه طيف معذب أو روح حائر أو هيكل غائر ، مسلوب الدم ، متقلص اللحم ، متقوس الصدر والعظام ..

والتفت اليها بغتة وارتعش .. أهذه هى ماريا ؟ ! .. أهذه هى زوجته الصبية المرحة الناضرة ؟ ! .. أيمكن أن يكون هذا من فعله هو ؟ ! .. انها ميتة ! .. لقد ماتت منذ الساعة ! .. لقد استعجلت قدرها وهى بعد لم تزل تتحرك وتتنفس وتعيش !

وتفرس فيها ثم مال ببصره الى الأخرى ، وطفق يقارن بين الضعف والقوة ، والقيد والحرية ، والبؤس والثراء ، والدمامة والجمال ، وابتسم .. ابتسم ابتسامته القاسية ، ابتسامته

الغليظة ، ابتسامته العابثة المستهترة ، وأعرض فجـأة عن ماريا وأرسل نفسا مستطيلا ، واستجمع قواه ، واندفع الى ساحة الملعب .

***

وخرجت ماريا فى أثره ، تجر قدميها جرا ، وسوطها فى يدها ، وبدنها يتطوح كأنه يوشك أن يفلت منها ويهوى ..

وحيتهما الجماهير بتصفيق حاد . وكان من واجبهمـا أن يتسلقا الحبال ويجريا ألعابهما عليهـا ، بعد أن يقوم كارلو ببعض الحركات البهلوانية فى أرض الملعب ، وبعد أن تدخـل ماريا القفص الكبير لتروض الوحوش ..

وبدأ كارلو حركاته وهو ثابت ، وتهيأت ماريا لدخول القفص وهى ترتجف ..

ارتجفت لأول مرة . ولكنها تراجعت وتمالكت نفسهـــا ، ثم تأملت كارلو لحظة وقلبها يتفطر ، ثم حولت بصرها صوب المركيزة ورمقتها بنظرة .. ثم عزمت ، فنصبت قامتهـــا ، واستجمعت مدخـر قواهـا ، وألقت بالسـوط المستطيل على الأرض ، ونفذت فجأة الى قفص الوحوش !

دخلت القفص عزلاء .. دخلت القفص بدون ســـوط . دخلت القفص مستهدفة للضوارى ، يائسة من حظها ، زاهدة فى حياتها ، مغامرة بنفسها ، متأهبة لتحمل أقسى ضروب الألم والعذاب والموت ..

وحانت من كارلو التفاتة فأبصرها ، فأدرك لفوره أنها تريد أن تنتحر . فتخطفت الخـــواطر عقله فترة ، وتاه فكـره ،

وهجس فى روعه أن يمضى فى العابه ، ويتحول عن ماريا ، ويدعها تموت فريسة للوحوش . ولكنه استهول بالرغم منه هذه الميتة المروعة ، واقشعر بدنه ، ولم يستطع الا أن يقفز من أرض الملعب ، ويتجه نحو حارس القفص ، ويصيح :

– سلاحك يا فرانشيسكو ! .. أخرجها من القفص فقد دخلت بدون سوط !

واندفع هو نفسه الى القفص وتبعه الحارس شاهرا سلاحه . وماجت الجماهير وعلا صياحها ، وتقبض وجه فلوريا وشحبت شحوبا مخيفا . واختلطت صرخات الجماهير بزئير الضوارى التى كانت تحوم حول ماريا ، وتتربص بها ، وتتسلل اليها ، وتستغرب منها صمتها وجمودها ، وتتحفز ، وتهم بالانقضاض عليها ..

وتمكن كارلو من زوجته ، فأخرجها من القفص عنوة ، وعينه الزائغة وقد ارتدت اليها قسوتها الوحشية ، ترشق فلوريا بنظرة معنوية ثابتة كأنها تستمهلها وتطمئنها ..

وغمغم كارلو فى أذن امرأته وهو يصطنع العطف والحب والشفقة :

– ماذا أصابك ؟ .. أمعتوهة أنت ؟ .. أتغامرين بحياتك من أجل أوهام ؟ .. أنا لك وحدك يا ماريا .. فلا تدعى الجمهور يسخر منك ويعبث بشهرتك .. تقدمى .. الى الحبال يا ماريا .. افتننى فى ألاعيبك ثم عودى بعد ذلك الى القفص واسحرى الناس بقدرتك ! .. هيا ..

ودفعها أمامه الى ساحة الملعب وهو يرتعش ، ولكنها توقفت ، ونظرت اليه ، ثم حدقت الى الحبال ، وأبت أن تتحرك .. كانت كأنها واثقة من المصير الذى ينتظرها • كانت كأنها لا تنفك تشرف ببصيرتها على المستقبل ، كانت كأنها لا تريد أن تموت بيد زوجها وحبيبها • فتحولت وهمت بأن تعود وتلقى بنفسها فى قفص الوحوش • ولكن كارلو أمسك بها وأرغمها على التقدم الى ساحة الملعب • فرفعت اليه بصرها التائه ، وبسطت يديها متضرعة مسترحمة ، وغمغمت فى صوت غائر متحشرج يمزق أقسى القلوب :

ـ ارحمنى !

فتفرس فيها واختلج • فانتفض بدنها وتقلص وجهها ، وانكبت على يده الخشنة تلثمها فى حرارة متوسلة ، وانفجرت من عينيها الدموع ..

وظلت تبكى والجماهير تستعجل اللعب وتهتف ، فاضطرب كارلو ، وتحسس بيديه الخشنتين وجه امرأته ، وشعر بغتة على الرغم منه ، شعر وهو ساهم شارد مأخوذ ، أنه هو أيضا .. هو أيضا قد جمد فى مكانه ، ولم يعد فى وسعه أن يتحرك ..

أحس أن ليس فى مقدوره أن يدفع زوجته الى الملعب حيث تتراقص فى رحبته الفسيحة خطوط الحبال ..

أحس أن ليس فى مقدوره أن يقتلها !

أحس أنها تستشعر كل شىء ، وأنها تتجه اليه ، وأنها تحبه كما لم تحبب امرأة أى رجل ، وأن آخر نفس من أنفاسها

هنوط بسلطانه ومرهون بارادته ٠٠ فلبث لحظة يجيل الطرف حوله كمخبول ٠ ثم انحنى على امرأته وتقطع قلبه ٠ انحنى عليها وجاش وجدانه ، انحنى عليهـــا واستيقظ ضميره ٠٠ فمد بصره المندلع وخالس فلوريا النظر ٠٠ ولم يكد يلمحهـا هناك ، فى ثوبها الوردى الفاتن ، وفى سكونها الشـــامخ الراسخ ، وفى جمالها الساحر الخلاب ، حتى ارتعد وتأكد ٠٠ تأكد واستوثق وأيقن أنه يحبها ، ولكنه أيقن أيضـا أنه اذا عاش فلابد أن يضحى بامرأته من أجلها ، وأنه اذا ضحى بامرأته الساعة فلن يمكنه أن يسعد فى صحبة فلوريا ، ولن يمكنـه مهما حاول وجاهد وكافح أن يخنق صوت ضميره ، ويطمس معالم ماضيـه ، ويرشف هانئـــا من فم حبيبته ولو قبلة واحدة ٠٠ !

ومثلت أمامه مأساته ، ووسوس له القـــدر أن يتخير بين أمرين : اما أن يقتل امرأته الوفية البريئة فيقتل راحته وحبه بيده ، واما أن يذهب هو فينجو من حبه المشئوم ، وينقـــذ امرأته ، ويستريح من وخز الضمير ٠٠

والتفت الى ماريا فألفاها ما تزال مكبة على يده تقبلهـــا وتبكى ، فملكته العزة والنخـوة ، وعز عليه امتهـان كبريائه ورجولته ، فدفع زوجتـــه عنه فى عنف ، واندفع ملهوفا الى جوف الملعب ، وأسرع فتسلق الحبل ٠٠ الحبـــل الذى كان مرصودا لماريا ٠٠ الحبل الذى كان كارلو قد قرضه ليلـة أمس بالسكين ٠٠

وبدأ يجرى على الحبل ألاعيبه ، ويتطوح به فى الهواء يمنة ويسرة كمعتوه ٠٠

وجحظت عينا المركيزة فلوريا ، وأدركت فى مثل ومض الطرف أن كارلو قد ضعف وخانها ٠٠ فأبرقت عيناها ، وغلى الدم فى عروقها ، ونهضت ٠٠ نهضت وقد امتلأ صدرها كمدا وحقدا ورغبة مروعة فى الانتقام ٠٠ نهضت وقد لمع فى ذهنها خاطر فظيع ٠٠ **وعندئذ انقطع الحبل ، وهوى كارلو من حالق ، وسقط فى رحبة الملعب يتخبط فى دمه ٠**

وأرسلت ماريا صيحة مدوية ، وتحقق ظنها ، وأدركت هى الاخرى كل شىء ٠ فطاش صوابها ، وارتمت مخبولة على جثة زوجها ٠ وماجت الجماهير ، وغادرت المقاعد ، واندفعت الى رحبة الملعب ، وأحاطت بالجثة وهى تصرخ ٠ وفى تلك اللحظة ، تراجعت المركيزة فلوريا ، وانحنت على نفسها ، ثم غافلت جموع القرويين ، ثم شقت زحمتهم ، وانسلت انسلال اللص الحذر ، ومرقت من الملعب الى غرف المهرجين ، ودخلت مقصورة كارلو ، وانتزعت السكين التى ما تزال تحملها فى صدرها ٠ ثم فتحت الحقيبة الكبيرة التى تجمع فيها ماريا ملابسها والتى نقش عليها الحرفان الأولان من اسمها ، ودست فى جوفها السكين ٠ ثم كرت راجعة ، واقتحمت رحبة الملعب ، وصاحت بأعلى صوتها وهى تلتقط قطعة الحبل المقطوعة ، وتنعم النظر فيها ، وتلوح بها أمام الجمع المحتشد : « **هذا الحبل قد قطع ! ٠٠ أتسمعون ؟ ٠٠ أنظروا ! ٠٠ تأملوا**

جيـدا ! ٠٠ ان كارلو لم يمت قضـاء وقدرا ٠٠ بل مات مقتولا ! »

فوجم القرويون وتطلعوا ٠ فاستطردت فلوريا وهى تومىء بأصبعها الى ماريا وشرر الحقد يتطاير من عينيها :

ــ وأكبر ظنى ان هذه المرأة هى التى قتلته ! ٠٠ لقد زرت كارلو فى مقصورته بالأمس ٠ وقبل أن أدخل شعرت به ثائرا مهتاجا ، وسمعته يقول لامرأته أنهـا تخدعه وتريد التخلص منه ! ٠٠ فأنا ٠٠ أنا أتهمها ! ٠٠ ولكنى لا أملك ضدهـا أى برهان ٠ فاقتحموا غرفتها ، وفتشوا حقائبها ، واثأروا منهـا بأنفسكم اذا كانت حقا قاتلة !

فذهلت ماريا ، وتطلعت الى غريمتهـا ولم تفهـم ٠ أما القرويون فقد صدقوا سيدتهم ، وصدعوا بأمرها وتبعوها ، واندفعوا كالموج الزاخر ودفعوا ماريا أمامهم ، واقتحمـوا مقصـــورة كارلو ٠ وما كادوا يدخلون حتى اتجهت فلوريا صوب حقيبة ماريا ، وأمرتهم بفتحها ، فبعثروا كل ما فيها ، وسرعان ما وقعت عيونهم على السكين ٠٠ وعندئذ صاحت بهم فلوريا وهى ترعد :

ــ ان قوانين العمـل هنا تحرم وجود سلاح فى حوزة أى مهرج كما تعلمون ٠٠ فلماذا جلبت هذه المرأة هذا السلاح ؟ ٠٠ ولمـاذا أخفته هنا فى حقيبتها الخاصة ؟ ٠٠ انها هى ٠٠ هى التى قطعت الحبل ، وهى التى قتلت زوجها البرىء !

فتصاعدت من الجماهير غمغمة طويلة مستنكرة ، علت فى مثل خطف البرق واستفاضت واستحالت الى زئير ٠ ففطنت

ماريا الى المكيدة ، ورأت الموت رأى العين ، فارتعدت فرائصها، وعقل اليأس لسانها وعجزت عن النطق بكلمة ، وكيف كان يمكن أن تتكلم وتصارح وتدافع ، وكلمة الحق الفاصلة فى نظر القرويين هى كلمة سيدتهم ؟ فحنت ماريا رأسها ، واستسلمت لقضائها ، ورحبت بالموت ثابتة وعازمة ، وتلقت الضربات ..

وانهال عليها القرويون لطما بالآيدى وخدشا بالأظافر وركلا بالأقدام ، فتشوه وجهها ، وتمزقت بشرتها ، ونزف منها الدم . ولكنها قبل أن ترزح ، وقبل أن تسقط ، وقبل أن ينتزع منها النفس الأخير ، غالبت القرويين جهدها ، وتملصت منهم ، واندفعت نحو فلوريا ، ثم صرخت من أعماق قلبها ممتعة نفسها وهى تموت بلذة انتصارها المعنوى الغامر ونشوة انتقامها العاطفى الوحيد :

ـ كان كارلو يحبنى أنا ! .. واذا كان قد مات ، فقد مات من أجلى أنا ! .. نعم . مات من أجلى أنا ! .. وانى لسعيدة بأن ألحق به !

وخارت قواها ، فتهاوت على نفسها فجأة ، وأسلمت الروح وهى تبتسم .

فى ليلة الكرنفال

« تقع حوادث هذه المسرحية فى جزيرة (كورسيكا) فى ليلة من ليالى أعياد الكرنفال • وقد اقتبسها للمسرح الفرنسى الكاتب « شارل ميريه » ، ثم استهوى موضوعها الموسيقى الاسبانى « دى لارا » ، فاستأذن « بلاسكو ايبانيز » واتخذ من هذه المسرحية مادة لاحدى أوبراته المشهورة »

المنظر

« ميدان فسيح فى احدى قرى جزيرة كورسيكا • عن اليسار منازل وأكواخ الفلاحين • عن اليمين بعض قصور ريفية صغيرة متواضعة يبرز من خلالها قصر التاجر الثرى « الفونسو ديلاكوربا » •

عندما يرفع الستار يرى الفونسو جالسا على عتبة باب قصره يدخن وهو مستغرق فى التفكير ، وبالقرب منه العجوز « برتا » ، مدبرة بيته ، تخالسه النظر الآونة بعد الأخرى وتختلج • تسمع عن بعد دقات أجراس مؤذنة ببدء أعياد الكرنفال التى تقام قبل الصوم الذى يسبق عيد الفصح »

المشهد الأول

الفونسو ـ برتا

الفونسو (يلتفت الى العجوز بغتة ويحدق فيها) : ما معنى الكلام الذى سمعته منك بالأمس يا برتا ؟

برتا (وهى ترتجف) : أى كلام ياسيدى ؟ !

الفونسو : لقد ذكرت اسم « فيولا » ثم رفعت بصرك الى تمثال العذراء مريم ، ثم تمتمت صلاة قصيرة كأنك كنت تلتمسين من العذراء أن تبارك وتحمى تلك الفتاة الملعونة ..

برتا (صارخة) : أنا ياسيدى ؟ !

الفونسو (فى غلظة) : نعم أنت .. أنت تعطفين على تلك الفتاة ، وتزعمين أن ابنى ، ابنى الوحيد « كارلو » يحبها ، وأنها خليقة بأن تصبح زوجة له . ولكنى لن أزوجه بها أبدا ! .. أتسمعين ؟ .. أنا أعلم أنه يغازلها ، بل ويخرج أحيانا فى صحبتها . ولكنى اذا كنت أغض الطرف عن مسلكه ، وأرى أن من حقه أن يتمتع بشبابه وماله ، فليس معنى ذلك أنى أرضى له بأن يجاوز حده ، ويقترن بفتاة بائسة معدمة تنحدر من أسرة وضيعة كان أفرادها ومازالوا يشتغلون سماكين وحمالين ومحطمى أحجار ! .. لن ألوث اسمى بمصاهرة أولئك الناس . فاياك أن تذكرى تلك الفتاة أمامى والا أبغضتك أنت أيضا وطردتك من بيتى شر طرد !

برتا : ولكن الفتاة لا ذنب لها ياسيدى .. انها لم تحاول أبدا اغواء ولدك .. هو الذى يلاحقها ، وهو الذى يطاردها ،

وهو الذى يأبى ألا أن يضيق عليها المسالك ويفوز بها !

الفونسو : اللذة متى كانت رخيصة يابرتا أصبحت ملكا حلالا للرجل القوى ، على شرط ألا تستبد به ، فيصبح هو نفسه رخيصا ووضيعا . فلينعم ابنى بتلك الفتاة ما شاء . ولكن عليه أن يفهم أنه لن يتزوجها !

برتا : هذا هو ابنك قادم ، فصارحه برأيك ، واكفنى أنا مؤونة هذا الحديث .

المشهد الثانى

المذكوران – كارلو

الفونسو : أراك اليوم مبتهجا : فأين كنت ؟

كارلو : كنت أتأهب لأعياد الكرنفال ..

الفونسو : ومع من قضيت نهارك ؟

كارلو : ليس فى وسعى أن أكذب يا والدى ..

الفونسو : تكلم اذن !

كارلو : كنت فى صحبة فيولا !

الفونسو : أنا على يقين من أنك لم تتهور فى علاقتك بها ، وانك أردت أن تتمتع دون أن تتورط . ولكن ألم تشبع بعد من قبلاتها ، ألم ترو بعد ظمأك من محاسنها ، ألم تمجها بعد نفسك وتلفظها ليلتقطها من هو خليق بها من حثالة الأوشاب والصعاليك ؟

كارلو : ياوالدى . ألفتاة شريفة وأنا أحبها !

الفونسو (مبهوتا) : تحبها ؟! ‧‧ ولكنك معتوه !‧‧ بل أعمى ! ‧‧ انها تغرر بك ‧ انها تطمع فى مالك !

كارلو : الفتاة شريفة ، ولابد ‧‧ لابد أن أتزوجها !

الفونسو (ثائرا) : ماذا تقول ؟ ‧‧ أتفرض ارادتك على ؟! ‧‧ محال ! ‧‧ وتلك الفتاة لن تدخل بيتى وفى صدرى نفس يتردد !

كارلو : القـــدر هو المستبد ياوالدى ، وهو أقوى منـــا جميعا !

برتا (على حدة) : ياله من مسكين !

الفونسو : ماذا تعنى ؟

كارلو : ان فيولا قد حملت منى !

الفونســو (مذهولا ومروعا) : ماذا أسمع ؟ ! ‧‧ ماذا تقول ؟ !

كارلو : وهبتنى ذاتها عن حب واخلاص وايمان ‧ فليس فى وسعى أن أكون نذلا ، وليس فى مقدورى أن أنبذهـــا ‧ أنا أحبها وسأدافع عنها ‧ فأشفق عليهـــا ‧ أشفق عليهـــا ياوالدى وارحمنا !

الفونسو : اغرب عن وجهى !

كارلو : ارحمنا يا والدى !

الفونسو : اليك عنى والا أفقدتنى صـــوابى ، ودفعتنى الى شر ما يمكن أن يقترفه انسان !

كارلو : ارحمنا وارحم طفلنا البرىء !

الفونسو : اللعنة عليكما ! ‧‧ اللعنة عليكما !

« ويتحول ثائرا مهتاجا ويدفع باب بيته ويدخل . وفجأة تشتد دقات أجراس كنائس القرية ثم تخفت شيئا فشيئا ، ثم يبرز من احدى زوايا الميدان الفسيح شيخ محدودب الظهر يتبعه ثلاثة من الشبان . فيتقدم الشيخ متجها نحو كارلو وبرتا »

الشيخ : أريد أن أتحدث الى السنيور الفونسو ، فافسحوا لنا الطريق والا حطمنا الباب ! .. « **ويدق الباب فى عنف فيفتح ويبدو منه الفونسو** » .

المشهد الثالث

المذكورون ـ الفونسو

الفونسو : ماذا تريد أيها الشيخ . تكلم .

الشيخ : ان ولدك غرر بابنتى ، ووعد أن يتزوجها ثم انتهك حرمتها وجلب لى العار ! .. الجنين يتحرك الآن فى أحشائها . فمن واجب ابنك الأب المجرم أن يعترف بولده ، ومن واجبك أنت أن تقر العدل فى نصابه ، وتنصف الفتاة وتنصفنا .. !

الفونسو : من أنتم ؟ ! .. ان جدى كان ابن عم أمير جنوا ، ووالدى كان أكبر صانع سلاح فى كورسيكا ، وأنا اليوم أشهر وأعظم تاجر فى هذه البلاد . أما أنتم ، فمن أنتم ؟

الشيخ : نحن قوم فقراء . ولكننا لا نصبر على ضيم ولا نسكت على عار .. !

الفونسو : كم تطلبون ؟

الشيخ : نطلب شرفا أو ٠٠ **دما !**

الفونسو : لن أمنح اسمى لبغى ولو هلكت !

الشيخ : أتهيننا أيضا ؟

الفونسو : تطاولكم على هو الاهانة !

الشيخ : فأسمع اذن ٠ لقد جئناك أنا وأبنائى الثلاثة رسل سلام ٠ فان أبيت الا الحرب فنحن رهن اشـــارتك ٠ **أمامك** ثلاثة أيام تفكر فيها ٠ فاما أن تزوج ولدك بابنتى ، واما أن تستهدف لعداء قوم فقـــراء يستهينون بكل شىء ما خـــلا الشرف !

الفونسو : افعلوا ما شئتم ٠ أن مثلى لا يخافكـــم ٠ واذا ثبت أنت أيها الشيخ فى غد الى رشدك ، فأنا متأهب لمنحك أى مبلغ تطلبه لتزوج به ابنتك وتستر عارها ٠ اذهبوا ٠٠

«وينصرف الشيخ وأبناؤه ٠ فيتبعهم الفونسو النظر ثم يتجه نحو ولده ثابتا عازما »

المشهد الرابع

المذكورون

الفونسو : كارلو ، يجب أن تسافر !

كارلو (مذهولا) : أسافر ؟ ! ٠٠ والى أين ؟ ! ٠٠ أتخلى الســـاعة عن فيولا وهى أحوج ما تكون الى ؟ ٠ ٠ أبدا ٠ ٠ أبدا ٠

الفونسو (صارخا) : يجب أن تسافر ! أنت تعلم أنك قد طلبت لتأدية الخدمة العسكرية ، أى لقضاء عامين ٠٠ وكان من رأيى أن أجنبك مشاق تلك الخدمة ٠٠ ولكننى قد عدلت عن رأيى ٠٠ ويجب ٠٠ يجب أن تسافر !

كارلو : ياوالدى ٠ هذا فظيع ٠٠ أنت تطعنننى فى صميم حياتى ، وتثير عليك ثائرة قوم لا تعرف الرحمة الى قلوبهم الناقمة سبيلا ٠

الفونسو : هذا أمرى ٠ فاما أن أنقذك ، واما أن أقتلك لو تزوجت تلك الفتاة ، وأمحو بدمك عارى ٠ وسأنقذك بالرغم منك ٠ فتأهب للسفر ، وكن على استعداد لمغادرة القرية فى أول قطار يقوم صباح الغد ٠ أما أنا فذاهب من فورى لملاقاة الحاكم ! ٠٠ انه جارى وصديقى ٠٠ ! وسأقص عليه ماحدث وأطلب اليه حمايتى من شر أولئك الصعاليك ٠ كن على استعداد !

« وينصرف مسرعا ٠ فتندفع العجوز برتا الى أقصى اليسار وتنادى : « فيولا ٠٠ فيولا ٠٠ » ثم تتراجع وتقبع فى زاوية لتحرس الطريق وترقب عودة الفونسو ٠ وعندئذ تبرز الفتاة من خلف جدار أحد المنازل ، وتتجه ملهوفة صوب حبيبها ٠٠ فيأخذها بين ذراعيه ، ويضمها الى صدره ، وعيناه تفيضان بالدموع ٠ »

المشهد الخامس

المذكوران ــ فيولا

كارلو (صائحا) : يريد أن يفرق بيننا يا فيولا ! ٠٠ رفض زواجنا ، وأهان والدتى واخوتك ، وهددنى بالقتل ان عصيته ، وأمرنى بأن أسافر غدا لتأدية الخدمة العسكرية ٠٠ عامين كاملين ، بعيدا عنك يا حبيبتى ! ٠٠ فماذا نفعل ؟ لو فررت معك الآن وعقدت عليك ، فسيقتلنى ٠٠ سيقتلنى لا محالة ! ٠٠ ان اسمه ومكانته أقوى فى نفسه ألف مرة من عاطفة الأبوة ٠ ان قلبه فى مظهره ٠ ولذلك فهو لن يرحم ٠٠!.

فيولا : أطع والدك يا كارلو وسافر !٠٠ ان حياتك عندى أغلى من كل شىء!٠٠ سأنتظرك!٠٠ أتسمع؟٠٠ سأنتظرك!٠٠ فكن مطمئنا ولا تخف على من أهلى ٠ لقد أوشك اخوتى أن يقتلونى ٠ ولكن والدى الشيخ الذى يحبنى ويشفق على ، أنقذنى من براثنهم ، وهو لن يتخلى عنى وعن طفلى ٠٠ لن يدعنى فى القرية وصمة له ولاولاده ٠٠ سيذهب بى الى قرية أخرى٠٠ وسأعيش هناك حتى تعود !٠٠ سأعيش فى صحبة والدك !٠٠ سأمكث العامين الطويلين فى مخبئى ، أحجب عن الناس عارى ، وأبتهل الى الله أن يردك الى سالما يا حبيبى ٠٠ ومن يدرى٠٠ فقد يفعل الزمن فعله ، وقد يرثى والدك يوما لحالى ٠ متى أبصرنى أجمل حفيده الصغير بين ذراعى ٠٠

كارلو : ولكن والدك قد أمهل أبى ثلاثة أيام ، وهوده بالثأر

ان لم يقبل زواجنا . فأخشى ما أخشاه أن أرحل ثم يقتل أبى ، فيصبح من المستحيل علينا أن نتزوج ..

فيولا : هذا تدبير اخوتى ، ولن يقرهم عليه والدى مادمت أنا بالقرب منه .. انه يرغب فى اسعادى وهو ليس بمعتوه كى يسلم بقتل والدك فيقضى على مستقبلى وحياتى شر قضاء .. لا تخف يا كارلو وسافر .. وهكذا تنقذ نفسك ، وتحرج اخوتى ، وتضطر والدى الى الصبر وسلوك مسلك الحكمة والتعقل !

كارلو (هاتفا وهو يتمزق) : ومن أين ، من أين أستمد القوة على الرحيل ؟

فيولا : من حبى وخيال طفلك ! .. ولكنى وأنا أطلب اليك ـ حرصا على حياتك ـ أن ترحل ، لا يسعنى قبل أن أحرم منك الا أن التمس اليك أن تقضى هذه الليلة معى .. هذه الليلة ليلة عيد يا كارلو .. وموكب الكرنفال سيملأ القرية عما قريب .. فيجب أن نلهو معا ، ونرقص معا ، ونفرح معا ، بحيث يكون وداعنا الليلة أعمق وأمتع من أروع لقاء .. فتعال .. تعال معى الى الكنيسة ، نصلى فترة ثم نشترك فى موكب الكرنفال ..

برتا : اذهب يا كارلو .. انتهز الفرصة يا بنى وامرح ، ولكن اياك أن تتأخر .. يجب أن تعود قبل منتصف الليل لتعد حقائبك .. اذهب يا بنى فى حفظ الله ..

«يتأبط كارلو ذراع حبيبته ويخرج بها من اليسار»

المشهد السادس

برتا بمفردها

برتا : أمامى بضع ساعات فقط !٠٠ ومع ذلك فلا يجب أن ايأس !٠٠ لابد أن أعاود الكرة !٠٠ لابد أن أحاول أيضا !٠٠ لابد أن أبرىء ذمتى ، وأبذل المستحيل كى اقنع الفونسو ، وأرده عن عزمه ، وأمنع سفر كارلو ، وأزوجه فى النهاية بمن يجب ؟٠٠ لقد ربيته بعد وفاة أمه وواجبى أن أنقذه !٠٠ هذا هو الفونسو !

« ويقبل الفونسو من أقصى اليمين مشرق الوجه باسما متهللا ٠٠ وتقبل فى أثره جموع القرويين ، وقد تقنعوا بأقنعة مختلفة الالوان ، وتنكروا فى أزياء شائقة غريبة ، وانطلقوا وهم يصيحون ويهتفون متجهين نحو الكنيسة حيث يتجمع موكب الكرنفال »

المشهد السابع

برتا ــ الفونسو

برتا (مندفعة نحو الفونسو) : أستحلفك بالله يا سيدى أن تعدل عن عزمك !٠٠ أنت طيب بقدر ما أنت عظيم !٠٠ لا تمزق قلب ولدك !٠٠ لا تدعه يسافر !٠٠ زوجه بمن يحب ، وأثبت للملأ طرا أنك أعظم وأنبل من أن تضع التقاليد فوق الرحمة والعدل !

الفونسو : أين كارلو ؟

برتا : ذهب فى صحبة فيولا ليشترك فى موكب الكرنفال ! ٠٠ وأنا ٠٠ أنا التى شجعته ! ٠٠ أليس من حقه أن يتمتع بالعيد قبل أن يسافر ؟ ٠٠ ولكنه لن يسافر ! ٠٠ هذا فظيع ! ٠٠ انى لأجثو أمامك وأقبل موطىء قدمك وأستحلفك بالله ألا تدعه يسافر ! ٠٠ لا تدعه يسافر رحمة به ، وحرصا على حياتك أنت !

الفونسو (يضحك طويلا ، فتتطلع اليه العجوز كبلهاء ، فيمضى فى الضحك ويقول) : حياتى أصبحت فى مأمن من كل خطر ، وكذلك حياة كارلو !

برتا (متهللة) : هل أرضيت والد فيولا ؟

الفونسو : انه الآن فى السجن .

برتا (صارخة) : ماذا تقول ؟

الفونسو : استخدمت نفوذى لدى الحاكم ، فأصدر أمره بالقاء القبض عليه ، وايداعه السجن هذه الليلة بطولها ، جزاء له على تهوره ووقاحته ٠٠

برتا (وهى ترتعش) : ولكن أولاده ٠٠ أولاده الثلاثة ؟

الفونسو (ضاحكا) : استدعاهم الحاكم أيضا ، وواجههم بى . فبدل أن أحذرهم وأهددهم ، لاطفتهم ، واحتلت عليهم ، واشتريتهم ٠٠ اشتريتهم بالمال ! ٠٠ لن يتحدثوا بعد الآن عن زواج اختهم بكارلو ! ٠٠ لقد أصبحوا أصدقائى ، بل رجالى ! ٠٠ فليمرح اذن كارلو وليتمتع كيف شاء ! ٠٠ لن يسافر يا برتا ! ٠٠ أتسمعين ؟ ٠٠ لن يسافر ! ٠٠ فأفرحى

أنت أيضا . وتعالى .. تعالى نذهب الى الكنيسة قبل أن يتحرك موكب الكرنفال .

برتا (مشيرة الى مدخل الميدان وصائحة) : هذا هو الموكب !.. هذا هو الموكب يا سيدى ..

« ويتقدم موكب الكرنفال ، ويقبل القرويون فى أزيائهم الشائقة ، وعرباتهم المتواضعة المزينة بأكاليل وعقود كبيرة من الازهار . ويبدأون أناشيدهم وهم يتضاربون بالزهر ورشاش الورق ، وأقنعتهم الشوهاء الضخمة العجيبة التى تمثل أشكال مهرجين وطيور وحيوانات وشياطين ، تترنح على رؤوسهم ، وتضفى على أثوابهم الزاهية الفضفاضة مظهرا ساحرا أخاذا يثير الفزع والضحك والاعجاب . فما أن يراهم ألفونسو حتى يجيل الطرف فيهم ، باحثا منقبا ، ويصيح :

الفونسو : ولكنى لا أرى كارلو .. أين هو ؟.. أين هو ؟

برتا : لابد أنه قد تقنع مثلهم ، وكذلك فيولا .. اكرمهم يا سيدى وانشد معهم .. انشد معهم نشيد الكرنفال !

« فيسرع الفونسو الى داره ثم يعود حاملا بضع زجاجات من الخمره وعدة أكواب ، فيحيط به القرويون المقنعون ويهتفون له . فيصب الخمر فى الاكواب ويقدمها اليهم ، فلا يكشفون عن وجوههم بل يرفعون أطراف أقنعتهم فى حرص بالغ ويشربون . بينما تكون برتا قد احضرت زجاجات وأكوابا أخرى ، وطفقت تنشد فى صحبة سيدها وجموع القرويين :

« اليوم يوم الوداع »

« وداع الفرح والحب »

« وغدا يوم اللقاء »

« لقاء الصلاة والصوم »

« فعش يا كرنفال العمر فى ليلة »

« وأذكر الحب طويلا »

« واملأ الاقداح » ! ..

ويردد الفونسو النشيد ويتبعه القرويون ، فتتألب عليه منهم جموع أخرى ، تظل تلوح بأذرعها وتهتف له مهنئة شاكرة . وفجأة يشق زحمة الجماهير أربعةرجال مقنعون ، ممسكا بعضهم بيد البعض الآخر ، يسندون واحدا منهم ، مقنعا مثلهم ، يتطوح تطوحا متعاقباويسبح كالتائه فى ثوبه الازرق الفضفاض ، وقد تدلى على وجهه قناعه الاحمر المصنوع على شكل طائر خرافى . ثم يتقدم الرجال الاربعة ويلاطف أحـــدهم برتا العجوز ويهـم بتقبيلها ، ثم ينثنى آخر الى الفونسو ، ويدور حــوله فترة كأنه يرقص ثم ينحنى أمامه ويتراجع ، فيتراجـع رفاقه فى أثره ، ويندسون وسط الجماهير ، ثم يتحولون بغتة صوب مقعـــد صغير قائم بجوار أحـــد البيوت ، ويجلسون عليه رفيقهم المقنع الذى كان يتطوح بين أيديهم كالشارب الثمل ، ثم يتبعون الجماهير وهى تتفرق من

الميدان الكبير وتتدفق الى القريةهاتفة منشدة٠وعندئذ، وفى غمرة الهدوء الطارىء الزافر الملبد ، تدخل فيولا ملهوفة ، وتتجه نحو برتا »

المشهد الثامن

المذكوران ـ فيولا

فيولا (صائحة) : أين كارلو ؟٠٠ انه ولا شك هنا ؟

ألفونسو : كيف ؟٠٠ ألم يكن فى صحبتك ؟

فيولا : كان معى ولكنه تخلف لحظة عنى ففقدته فى زحمة الجماهير ٠

برتا : ربما كان قد ذهب ليودع عمته قبل أن يسافر ٠٠

ألفونسو : اسرعى اليها ، وان لم تجديه فى بيتها ، فأبحثى عنه عند صديقه أنطونيو ٠

فيولا : أنا ذاهبة معك يا برتا ٠٠

برتا : لابد أنه فى منزل عمته ٠

« وتندفع العجوز مصحوبة بالفتاة ٠ ولكنها ما تكاد تبلغ الزاوية اليسرى من الساحة وتلمح الرجل المقنع الجالس على المقعد الصغير حتى تتراجع »

برتا : من هذا الرجل ؟

ألفونسو : انه سكران ٠

برتا : ولكنه لا يتحرك ٠٠

ألفونسو : مالك وله ٠ اسرعى ٠٠

برتا (وقد حفزها الفضول) : أنت ٠٠ أنت أيها الرجل ٠٠ من أنت ؟ **(وتهزه من كتفه فيتداعى ويسقط على نفسه)**

برتا (صائحة) : أيتها العذراء !

« ألفونسو يثب الى المقعد ، وينحنى على الرجل ، ويكشف عن وجهه القناع ٠ وما أن يحدق اليه ويعرفه حتى يرسل صرخة مدوية ممزقة : « كارلو ! ٠٠ انه كارلو ! ٠٠ ولدى ! » ٠٠ ويتحسسه وهو مسلوب الحول ، طائر اللب ، ويظل يصرخ : « مات ! ٠٠ لقد مات ! ٠٠ اختطفوه وخنقوه ثم جاءونى بجثة متنكرة مقنعة ! ٠٠ هم ! ٠٠ هم بعينيهم ! المجرمون ! ٠٠ المجرمون الثلاثة ٠٠ أبناء الشيخ الحاقد الموتور ! » ٠٠ ويتلفت حوله زائغ البصر معتوها ، فيبصر فيولا ذاهلة تائهة ، مفغورة الفم كبلهاء تحدق هى الأخرى الى حبيبها بعينين جاحظتين ثابتتين ، تحديق ذعر وخبال ٠ فيثور ثائره ويجن جنونه ، ويصيح بها :

ألفونسو : أيتها الفاجرة ! ٠٠ أيتها الفاجرة ! ٠٠ من أجلك ٠٠ من أجلك أنت قتل ولدى !

« وتجيش فى صدره عوامل اللوعة ، والحسرة ، والكمد ، والحقد ، فيفقد وعيه تماما ، وينتزع خنجره ، وينقض على الفتاة يريد أن يفتك بها ٠ فتلمحه برتا العجوز ، وتسرع فترتمى عليه ملتاعة ، وتمسك بذراعه وتصرخ :

برتا : انها بريئة ! ٠٠ اياك أن تمسها بسوء ! ٠٠ رد سلاحك الى غمده وأذكر ٠٠ أذكر أن ابن كارلو ٠٠ أن حفيدك ٠٠ كل مابقى لك فى هذه الدنيا ٠٠ يتحرك الآن فى احشائها !

« فيرتعش ألفونسو ويتنبه ، ثم ينظر الى الفتاة طويلا ، ويذكر كلمات العجوز فيتفطر قلبه ، وتختلج أعضاؤه ، وتنفجر من عينيه الدموع ٠ فيغمغم وهو يلقى بسلاحه ، ويحتضن فيولا ، ويدفعها فى رفق الى بيته :

الفونسو : أدخلى ٠٠ ادخلى يا بنيتى !

« ويهم بأن يتجه صوب جثة ولده ليحملها الى الدار ٠ ولكنه يرزح تحت وطأة عذابه ٠ فيتطلع الى فيولا التى أصبحت كل أمله ، وتنهار قواه فجأة ٠ فيترنح ، ويقع بين ذراعى الفتاة مغشيا عليه » ٠

وينزل الستار

الجبار

حدثنى ذلك الشاب فقال :

دنوت من النافذة الكبيرة ، ونحيت ستارها ومضيت احدق الى الأفق البعيد وأنا أفكر .. تدافعت فى رأسى الخواطر وغزت خيالى الأطياف والرؤى .. تصورت الجريمة الشائنة التى يمكن أن يكون قد ارتكبها أحب وأقرب الناس الى ، وتمثلت والدى الضعيف المضطرب ذليلا بائسا مقهورا ، فانقبض قلبى وجاشت عواطفى المحتجزة ، ووددت لو استطعت أن أقر العدل فى نصابه وان أثأر بنفسى لشرف الأسرة المسلوب !

ولكن ماذا يجب على أن أفعل ، وكيف ينبغى أن اتصرف ، وأى طريق فى وسعى أن أسلك تأدية لواجبى وترضية لضميرى ؟

الجو خانق ، والبيت مسمم ، وروح الرذيلة تنتشر حولى وتثير نفسى ، وتوشك أن تدفع بى الى مقابلة الشر بالشر والجريمة بالجريمة !

أفى الامكان هذا ؟ .. ايحتمل أن تكون والدتى حقا مذنبة ؟ .. انها ولا ريب امرأة رشيقة وفاتنة ، مولعة بالتجميل والتبرج ، فى أخلاقها شىء من المرح والخفة والخلاعة

والدلال . ولكن هذه الظواهر لا تكفى لاتهامهـا ، ولا يمكن أن تلقى عليها ظلا كثيفا من الريبة ..

ومع ذلك ففى حركاتها واشاراتها ونظراتها ما يدل أبلغ الدلالة على أن جوهر نفسها قد تغير ، وعلى أن قوة وقحـــة جديدة غريبة قد استقرت هذه الأيام فيها واحالتها الى امرأة أخرى .. أجل . أنها الآن أشد جرأة ، وأكثر خلاعة ، وأوفر عبثا واستهتارا . ثم هى تسرف فى اذلال أبى وتمعـــن فى اضطهاده ، وتجد لذة خبيثة فى التنكيـل به أمام النـــاس ما استطاعت الى ذلك سبيلا .. !

يالها من رؤى تحيرنى وتقلقنى وتمزق فؤادى تمزيقـــا . **والد تعس ذليل يحب امرأته الى حد العبادة ويخضع لهـــا خضوعا أعمى ، ووالدة قاسية مستبدة تهزأ بزوجها وتسخر منه ويبدو عليها أنها لا تكترث لا لحبه ولا لعذابه ولا لمستقبل ابنها وشرف أسرتها !**

الليل حالك السواد ، والطبيعة ساكنـــة هادئة ، وذهنى مفعم بالوساوس ، وبدنى المرهق المحطم يأبى أن ينام ..

لا نبأة تسمع ولا همس .. هذه وحشة مذيبة كوحشـــة القبور .. يجب أن أستريح .. يجب أن أنام الليلة ولو ساعة فقط .. ولكن ماذا أرى ؟ .. ما هذا الشبح الذى ينسل فى جوف الظلام ؟ .. يالعقلى التائه المخبول ! .. أفى يقظـة أنا أم فى منام ؟ .. أشجار الحديقة تهتز ، والشبح يدفع أغصانها دفعا خفيفا ويتقدم .. الى أين ؟ .. الى أين يتجه ؟ .. ها هو ذا ينطلق ويتحول .. يتحول الى الجناح الأيسر ، ثم يدخل

.. آه .. يدخل مخدع والدتى ! .. انى لانخلع لمجرد تصورى .. لا ينبغى أن أضيع الوقت .. سأعرف السر وشيكا ولو هلكت .. ومع ذلك فيجب أن أمشى .. أن أتجرك .. وهأنذا أمشى .. هأنذا أفتح باب حجرتى ، وأحبس أنفاسى جهدى ، واجتاز حجرة والدى ، وأتقدم بخطى وئيدة متلصصة نحو مخدع والدتي ..

فلأكمن هنا ، ولأرهف السمع ، ولأنتظر .. انها تتكلم .. هذا صوتها .. صوت أمى .. أنها تقول للرجل وهى تلهث : « أخرج ! .. عد من حيث أتيت ! .. أنت مجنون ! .. ما كنت أحسبك نزقا الى هذا الحد ! .. أخرج ! »

ويتهدج صوت الرجل ويقول : « أسبوع بأكمله لم أرك فيه .. انتظرتك فى بيتنا طويلا على غير جدوى .. خشيت أن تكونى مريضة فجئت اليك بنفسى .. انى من أجلك أغامر بحياتى ، فارحمينى واصفحى عنى ! »

وتغمغم المرأة : « قبلنى وانصرف .. »

ويهتف الرجل : « انى أحبك ! »

الرجل ؟ .. آه ! لقد غام بصرى ، وتقطعت نياط قلبى ، وعرفته ! .. عرفت صاحب الصوت .. فلبثت فى مكانى لحظة ، وأسنانى تصطك ، والعرق البارد يتصبب على وجهى ، حتى سمعت والدتى توصد الباب ، وتأوى الى فراشها ، وتغيب حركاتها فى لجة الصمت العميق . فتحاملت على نفسى ، ومددت ذراعى المرتعشة ، وفتحت الباب الداخلى ، واقتحمت المخدع .

وهبت والدتى من فراشها مذعورة ، وصاحت وهى توقـد النور : « من هنا ؟ »

ثم صرخت : « أنت ؟! »

فصوبت اليها نظرة هائلة وقلت : « رأيته ! رأيته بعينى ينسل من الحديقة ويصعد الى هنا ! »

فجحظت عيناها وتمتمت : « لا أفهمك . عمن تتكلم ؟ »

فأثارنى نفاقها وصحت : « تخدعين أبى .. ومع من ؟ »

وجن جنــونى واردفت : « مع مسنيو ادمندو .. مع والد خطيبتى ؟ »

ثم انقضضت عليها ، وجذبتها من ذراعهـا وأرغمتهـا على أن تجثو أمامى على الأرض .. وقلت وأنا أهدر : « واذا قتلتك الآن ، اذا انتقمت لوالدى ، أفـلا أكون قـد أديت له واجب البنوة ؟ .. ولكنه يحبك وا أسفاه . ولو قتلتك لمات هـو أيضا على الأثر ! »

وصمت وأنا ألهث . ثم غالبت أعصابى جهدى ، وحدقت الى المرأة التى لم أعد أشعر بأنها أمى ، وقلت فى صوت حازم باتر كضربة سكين : « سنغادر روما ! .. سنسافر الى لندن بعد بضعة أيام ! » .. فتطلعت الى مذهولة ثم رفعت رأسها بغتة وتحـدتنى ، وقالت وهى تعض على شفتيهـا الحمراوين الناتئتين : « تريد أن نسافر لتقطع صلتى بأدمندو ؟ »

وأرسلت ضحكة ساخرة متشنجة واردفت : « ولكن بأى مال نسافر ؟ »

واستطردت وهى توشك أن تقهقه : « آخر عمارة كان يملكها والدك ، بيعت منذ أربعة أيام . بيعت بقيمة الرهن.. أفهمت الآن ! »

فأرتميت عليها ، وأمسكت بكتفيها ، وقلت وأنا أهزها هزا عنيفا : « اسرافك وتبذيرك هما السبب فى خرابنا ! .. لقد ألتهمت ثروة العائلة بمفردك . وبعد أن التهمت ثروتنا شرعت فى تبديد وتمزيق شرفنا ! »

فصاحت : « المهم اننا لم نعد نملك شيئا ! ولولا أدمندو.. لولا نقوده وسخاؤه لما استطعت انت ، انت نفسك ، ان تعيش فى هذا القصر الجميل ، وتأكل وتشرب وتلهو ، وتعقد خطبتك على ابنته الجميلة جوليا ، أيها العاطل المغفل المغرور!»

فشعرت كأن يدا قوية هوت بضربة مطرقة على عنقى ،وقلت وأنا أجيل بصرى الشارد فى أنحاء الغرفة كمعتوه : « **اذن فأدمندو ينقذنا من الخراب ويزوجنى ابنته مقابل الفوز بك ؟** »

فأجابت وهى تبتسم : « وانها لصفقة عظيمة لنا لو كنت تعقل !! »

فبهت لوقاحتها وهتفت : « ولقد رضيت بهذا ؟ ..انت.. انت أمى ؟ »

فصاحت : « أنا أحب أدمندو كما تحب أنت جوليا . ثم.. ثم أنا أنقذكم ، ومن واجبك أن تشكرنى بدل أن .. »

فقاطعتها وقلت وقد أخذ الغضب بمخنقى : « الى أية هوة انحدرت بك خلاعتك وحبك الجنونى للترف ! .. لقد غررت

بوالدى ثم خـــدعتنى انا ! ٠٠ نعم ، انت التى أضرمت فى قلبى هذا الحب العنيف لابنة المخلوق الوضيع الذى اتخذته عشيقا لك ! ٠٠ هو ذاك ٠ أردت أن أحب جوليا لأغض الطرف عن سلوكك وأتجاوز ٠٠ ولكنى لست الرجل !٠٠ أنا عاطل ! ٠٠ أنا ابن ذوات ! ٠٠ لم آلف العمــــل ! عشت مدللا وما أحسنست يوما بمعنى المسئوليـة ! ٠٠ غير انى متعلـم ٠٠ وسأشتغل ! ٠٠ أجـــل ٠٠ سأربح خبزى بعرق جبينى لى ولوالـدى ولك ! ٠٠ يجب أن تعيشى معى فى البلـــد الذى أريد ، وبمقدار المال الذى أستطيع أن أربح ! ٠٠ سأقترض ما يلزمنى ، وسنسافر الى لندن ، وسأبحث لى عن عمـــل هناك ٠٠ فى فرع المصنع الذى يديره ابن عمى ٠٠ وهـكذا أحررك وأنقذك وأمحو من جبينى وصمة هذا العار ! »

فاستضحكت والدتى وقالت : « وجوليا ؟ ٠٠ »

فأجبتها وأنا أتفرس فيها : « انها تحبنى ، وستلحق بى ، وهناك أتزوجها ! »

فقهقهت قهقهة وحشية وقالت : « أواثق أنت ؟ ٠٠ »

ثم جمدت تقاطيعها وأردفت فى صوت حاد المخارج باتر النبرات : « ان جوليا تجهل كل شىء عن عـلاقتى بوالدها ٠ انها فتاة شريفة متكبرة أبيــة ٠ لا أنـكر ذلك ٠ ولـكنك لو صارحتها بالحقيقة وطلبت اليها أن تتبعك فسترفض ! ٠٠ أنا واثقة من أنها سترفض ! ٠٠ انها تحب الشرف والاستقامة ولكنها تحب المـال والترف أيضا ! ٠٠ لقد نشأت فى بحبوحة اليسر والعز والجاه المؤثل العريق ، فكيف يمكنها أن ترضى

بحياة الذل والعمل والفقر ، بعيدا عن أهلها وعن مجتمعها وفى بلد ناء غريب ؟ .. انها تضع العقل فوق العاطفة والترف فوق الحب .. وكذلك أنت! .. نعم .. لا أنت ولا هى فى وسعكما تحمل الجهاد اليومى من أجل لقمة العيش ! .. **اذهب اليها ! .. قل لها كل شيء ! .. ولكن اعلم انها ستنبذك وتحتقرك وتكرهك ، وانك أنت لن تقوى على الفقر ، ولن تقوى على العمل .. ولن تقوى على الجهاد .. لأنك فى صميم نفسك تقدس المال كما يقدس العابد الصنم ! .. اخرج .. اذهب الى مخدعك .. نم قليلا وفكر كثيرا وعسى أن تثوب الى رشدك قبل فوات الوقت ! »**

ودفعتنى صوب الباب فى رفق ، وأوصدته خلفى ، فمشيت مترنحا متخبطا ، ترن فى أذنى كلماتها ، وتهزنى من الاعماق، وتكشف لى بالرغم منى عن جوانب فى نفسى كنت أجهلها ، أو كنت أشعر بها دون أن أستطيع النظر مواجهة اليها ..

ودخلت البهو الكبير ، وأوقدت أنواره ، فتلألأت الثريا العظيمة ، وتوهجت واضطرمت كأنها الشمس الساطعة ..

وأجلت البصر فى البهو وأنا أرتعش . راعنى الأثاث الفاخر ، والرياش الناعم ، والمقاعد الوثيرة ، والطنافس اللينة، والتحف البديعة النادرة ، فهفا قلبى الى الترف الذى ألفته، واستبد بى جو النعمة الذى عشت فيه ، وأحسست انى جزء من هذه النعمة السابغة ، وانها تنبع منى وتنصب فى وتخالط روحى وفكرى ودمى ، فلم استطع أن أتصور كيف أنفصل عنها وكيف أفارقها ، وكيف يمكن أن أودعها الوداع الأخير !!

واندفعت الى مخـدعى ، وأوقدت النـور أيضا ، وجعلت أقلب بياضاتى النظيفة الناصعة ، واتحسس أثوابى الانيقة الشائقة ، وأتأمل زجاجات العطور التى كنت أتطيب بها ، وقوارير الدهان الذى كنت أصـفف به شـعرى ، ومختلف أدوات الزينة التى كنت أعنى بانتقائها ، واحرص كل الحرص عليها ، والتى كانت تجملنى ، وتجمل الكون أمامى ، وتذيقنى فى نشـوة اليسر والمـرح والفـراغ طعم الحيـاة ‥ **لا ‥ لن أستطيع التحرر منها‥انى أحبها‥انى أعشقها‥ انها غذاء وجودى كالنور والمـاء والهواء ‥ ومع ذلك فيجب أن أنسلخ عنها ‥ يجب أن أضحى بها ٠ يجب أن أركلهـا بقدمى وأسحقها ‥ اما هذا الترف واما رجـولتى ! ‥ اما هذا الترف واما شرف أمى وأسرتى !** ‥ محال ‥ ينبغى أن أقطع ‥ أن أبتر ‥ أن أسافر وأتخلص ‥ ولسوف تكون جوليا معى ‥ بقربى ‥ تقـوينى وتشجعنى ، وتسحق هى الأخرى مباهج الترف مثلى ، وتنقـذنى من التردى فى حمأة الذل والعار وتتبعنى ! ‥ أنا أعلم انها تحبنى وتحب الشرف والاستقامة فوق حبها نفسها ونفسى ، وان أعظم تضحية تهون عليها من أجلى ٠ فلأذهب اليهـا اذن ، ولأنشد على يديهـا الطاهرتين خلاصى !

* * *

وكان النهار قد طلع ، وأشرقت الشمس ، فارتديت ملابسى ، وخرجت ميمما وجهى شطر منزل جوليا المواجه لمنزلنا ٠ وانى لأهم باجتياز الحديقة المؤدية الى المنزل واذا بى أرى جوليـا

نفسها متهيئة للخروج ، شاحبة الوجه ، غائرة العينين ، على محياها الناضر الجميل امارات الهم والقلق والأسى .

وقبل أن أحييها ، تأبطت ذراعى ، وانطلقت بى الى الشارع ، وهمست فى أذنى : « كنت ذاهبة اليك .. »

فتطلعت اليها مستغربا وقلت : « وأنا أيضا ! »

فتفرست فى وجهى لحظة ، ثم اتأدت فى سيرها وقالت فجأة بلهجتها الصريحة الحرة : « ألم تكن على علم بالعلاقة التى تربط بين والدتك وأبى ؟ »

فبهت وأجبت : « وهل كنت انت على علم بها ؟ »

فقالت وهى ترتعش : « **وقفت على هذا السر ليلة أمس فقط .. أصابنى أرق شديد فلبثت ساهرة حتى ساعة متأخرة من الليل . وبغتة لمحت والدى ينسل من البيت تحت جنح الظلام ، ويتجه صوب الجناح الايسر من منزلكم ، ويدخل فى جرأة عجيبة مخدع والدتك !** »

فغمغمت فى ذهول وأنا أتطلع اليها : « وهذا ما أبصرته أنا أيضا لأول مرة ، وما دفع بى الى الاسراع اليك .. »

فاختلجت اختلاجا عنيفا ثم رمتنى بنظرة قاسية مروعة وقالت : « أقسم لى انك لم تكن على علم بهذه العلاقة فيما مضى .. »

فهتفت : « أقسم بحبى وحياتك انى كنت أجهل كل شىء ! »

فنظرت الى من خلال أهدابها المستسرة وقالت : «والآن علام عولت .. وهل أنت راض عن هذا الوضع الشائن الحقير ؟ »

فصحت من أعماق قلبى : « ماجئت اليك الا لتنقذينى ! ..

لقد جن جنونى عندما وقفت على الحقيقة ! .. لم أتمالك نفسى فاقتحمت مخدع أمى بعد أن خرج والدك ، فلم تستطـع أن تنكر واعترفت بكل شىء ! .. ان والدى على شفا الافـلاس يا جوليا ، ولقد باع آخر عمارة يملكها ، باعها بقيمة الرهن، وأبوك هو الذى ينفق علينا ، هو الذى يمد والدتى بالمـال .. أما هى فتريد أن نتحاب ، وتريد أن نتزوج ، لتوثق الصلة بينها وبين والدك ، وتبنى حياتنا جميعا على الخيانة والجريمة والعار ! .. انها تأبى أن تعيش فقـــيرة وشريفـــة ، ولكنى سأرغمها ! .. سأجبرها ! .. ومن المحال على أن أقبـل أن ينتهك بيتى ويدنس حبى ، وتلوث يدى بأى مال حرام ! .. لقد عزمت أن أرحل الى لندن ، أنا والأسرة كلها ، وان أشتغل هناك بعرق جبينى ، ابقاء على سمعتى ، وحرصا على كرامتى، وصونا للبقية الباقية من شرف تلك المرأة التى لم يعد فى وسعى أن أدعوها أمى ! .. **فاذا كنت حقا تحبينى يا جوليا فانقذينى! .. اركلى الترف والمـال يا جوليـا واتبعينى ! .. فى يدك الآن حبى ومصيرى ، فانعمى النظر يا جوليا وتكلمى .. »**

فأطرقت برأسها لحظة ، ثم رفعت الى عينيهـا الزرقاوين الصافيتين ، ثم قالت فى صوت هادىء أجش عميق : « لا يمكن أن أتبعك ، ولا يمكن أن أنقذك ، ولا يمكن أن أصبح زوجـة لك ! »

فارتعدت فرائصى وصرخت : « ولكن هــذا حـكم بموتى يا جوليا ! »

فصاحت : « كلا ٠٠ ان زواجنا لو تم هو الذى سيصبح حكما بالاعدام علينا نحن الاثنين ! ٠٠ كيف تريد أن تتزوجنى وتصبح سعيدا معى وانت تعلم علم اليقين أن والدى هو الذى انتهك حرمتك ، ولوث شرفك ، وطعنك فى الصميم ؟ ٠٠ لن تنسى أبدا أنى ابنة عدوك ، وقد تنتقم منه فى شخصى كلما وقع بصرك على والدتك وذكرت أن عارها وعارك كان مصدره أبى ! ٠٠ ثم ٠٠٠ ثم أن والدتك نفسها ستكرهنى وتبغضنى وترى فى الأداة التى أستخدمت للضغط عليها ، والتنكيل بها ، والتفريق بينها وبين الرجل الذى كان يحبها ويغدق عليها المتع بلا حساب ! ٠٠ كلا ٠٠ كلا ياصديقى ٠٠ ان الواجب يقتضيك أن تنبذنى ، وتنبذ كل اتصال بأسرتى ، ولا تفكر أبدا فى الزواج من فتاة حمل والدها العار الى بيتك ، بدل أن يحمل اليه النبل والطهارة والشرف ٠ أنا أحبك ، وكان أملى أن أصبح زوجتك ، ولكن سلوك والدى يفرض على أن أضحى بحبى وسعادتى ٠ أجل ٠ أنا ضحية والدى ٠ فلأكن اذن ضحيته وحدى ٠ أما أنت فانج بنفسك ٠ سافر واشتغل وجاهد وانقذ والدتك ٠ ثم تزوج ٠ تزوج فتاة خليقة بحبك وتقديرك ، فتاة ترفع رأسك بها وبأهلها ، وتستطيع أن تقول ان كل ما فيها ناصع وبرىء وشريف ؟ ٠٠ هذه ارادتى ولن أتحول عنها مهما فعلت ! »

وصمتت وهى تلهث ، فانخلع قلبى ، واستهولت مصيرى ، وأمسكت بيدى جوليا وطفقت أقبلهما وأردد والدمع يطفر من عينى : « لا تتخلى عنى ٠٠ انى أحبك ! »

فجذبت يديها المرتعشتين ، ونحتنى عنها فى رفق ، ثم قالت بنفس الصوت الهادىء الاجش العميق : « كل ما كان بيننـا قد انتهى ! »

وانطلقت تعدو ، فهممت بأن ألحق بها ، ولكنى أحسست أن ارادتها الصادقة لن تضعف ، وعزمها القــاطع لن ينثنى ، فلبثت فى مكانى أتبع طيفها النظر ، والدموع تنفجر من عينى وتكاد تخنقنى !

ولمـا أبصرت نفسى فى الشارع وحيدا ذليلا مقهورا ، دبت فى شجاعتى ورجولتى ، فقصدت الصديق الذى كنت أعتمـد عليــــه ، فأقرضنى المـال اللازم لسفـرى ، فحملت المـال وأسرعت من فورى الى مكتب احدى شركات الطيران وابتعت ثلاث تذاكر الى لندن ، ثم عدت الى بيتى أشوق ما أكون الى التعجيل بتنفيذ خطتى ، عساى أن أنسى ألمى ، وأنسى عارى ، وأنسى جوليا ، وأهدأ فى البلد الغريب وأستريح ..

ومررت فى طريقى بمنزل جوليا ، فانقبض قلبى ، وحزت اللوعة فى صدرى ، وكدت من فرط الحسرة أن أسقط مغشيا على .. ولكنى تمالكت نفسى ، واتجهت نحــو بيتى ، يائسا عازما مستسلما .

وعندئذ ، وقبل أن أدخل ، سمعت ضجة غريبة ، وترامت الى أصوات وصيحات متقطعة ، فاستغربت وبهت ، وحثثت الخطى ، وفى تلك اللحظة التى لن أنساها ما حييت ، تعالت فى الجو صرخة انسان أعرفــه ثم اختنقت ، فـدب الذعر فى قلبى ، واندفعت الى داخل البيت ..

وما أن اقتحمت البهو الكبير ، وتوسطته ، حتى انعقد لسانى ، وجمد دمى ، وتراجعت مفغور الفم ، جاحظ العينين، محيرا ذاهلا مخبولا ..

رأيت أمى منطرحة على الارض والدم ينزف من عنقها .. ثم رأيت مسيو أدمندو والد حبيبتى يتخبط على الأرض هو الآخر ويسبح فى بحيرة من الدم .. ثم رأيت والدى .. والدى نفسه .. والدى الساذج الضعيف المسكين ، وقد استحال الى جبار منتقم ، واقفا فى احدى زوايا البهو الكبير ، ينتفض حقدا وكراهية وسخطا ، ومسدسه فى يده ، ورهط من الخدم حوله ، يصيحون ويستغيثون ..

وما أن أبصرنى حتى وثب بى وأمسك بذراعى وصرخ بأعلى صوته كمعتوه : « لقد قتلتهما ! .. قتلتهما ! .. كنت أشك وأصمت،وأرتاب وأخفى ، وأصبر وأحتمل كى أتأكد وأتثبت.. أعتقد المجرمان أنى ضعيف ، وأنى ساذج ، وأنى أعمى ، ولكنى كنت أرى ، وأرقب ، وأنتظر فى هدوء ساعتى ! .. واليوم .. اليوم غافلتهما هنا .. فى منزلى .. فرأيتها تقبله، ورأيته يقبلها ويدس فى يدها رسالة .. فانفجر كل حقدى وعذابى وصبرى ، ولم أستطع الا أن أقتل !

« خذ واقرأ .. انه عشيقها ! .. عشيقها منذ سنوات!.. كان مقدرا على أن أسجن ، وأقضى البقية الباقية من حياتى بعيدا عنك يا ولدى العزيز الوحيد ! »

فأخذته بين ذراعى ، وضممته الى صدرى، وصحت : «لست أنت الذى قتل ! .. أنت رجل كهل ، ولو قبضوا عليك فقد

تموت فى السجن بعد بضعة أسابيع أو أشهر ! •• يجب أن تدلوا جميعا بنفس الشهادة ! •• يجب أن تلقوا التهمة على وحدى ! •• أنا •• أنا الذى قتلت وأنا الذى يجب أن أعاقب وأطرح فى غيابة السجن ! »

فهتف والدى : « حذار ! •• اذا اتهمت نفسك قتلتنى على الفـور ! •• يجب أن تعيش •• المستقبـل أمامك ، ولست مجنونا لأفاضل ولو لحظة بين حيـاتك وحيـاتى ! •• يجب أن تعيش ! »

فتشبثت به ، وطفقت ألثم يديه ، وأحاول مستميتا أن أثنيه عن عزمـه ، ولكنـه لم يكترث لى وصاح بالخـدم : « بلغوا البوليس على الفور ! •• انى منتظر ! »

ولم يكد يصمت ، ويتهاوى على مقعد خائر القوى ، حتى سمعت من الخارج صيحـة مدوية ممزقـة ، فتلفتنا جميعا مذعورين ، فأبصرنا جوليا تدخل البهو ، محلولة الشعـر ، مندلعة العينين ، وترتمى على جثة والدها صارخـة : « أبى ! أبى ! »

وما أن أبصرها والدى حتى هب واقفـا وصاح : « أطردوا هذه الفتاة ! »

ثم تحول الى وأردف وهو يرتعد : « انها ابنة المجرم ومن المحال أن تصبح يوما من الايام زوجتك ! •• ولو خطر لك فيما بعد أن تقترن بها فثق أن لعنتى ستحل الى الأبد عليك ! »

فتحاملت جوليا على نفسها ، ودنت من والدى ، وقالت له بصوت متهدج متحشرج وهى تحاول أن تكفكف دمعها الغزير :

« من حقى يا سيدى أن أبكى والدى الميت ، ولكنك يجب ألا تعتقد أنى ألومك على ما فعلت !

« لقد كان والدى مجرما وكنت أنت محقا فى الثأر منه لشرفك المسلوب ! .. أما أنا فلم أكن أعلم شيئا وأقسم بالله ! .. لقد خدعنى والدى كما خدعك ! .. أخفى عنى كل شىء كما استطاع أن يخفيه عنكم جميعا . **واذا كان قد عبث بشرفك فهو قد حطم أيضا أملى العظيم فى حب ولدك ، وهدم سعادتى ومستقبلى وحياتى ! .. فكن عادلا فى حكمك على يا سيدى وارحمنى ! .. سأصدع بأمرك ولن أرى بعد اليوم ولدك ، ولكن اعلم أنى شريفة ، وانى بريئة ، وأنى مثلك ضحية . فلا تأخذنى بجريرة غيرى واشفق على ! »**

وأكبت على يده ، يده التى قتلت والدها ، وقبلتها . فتراجع والدى مشدوها ونظر اليها ..

نظر الى الفتاة واختلج ..

نظر اليها طويلا ثم انهمرت من عينيه الدموع .. وفجأة ، وفى حركة غريبة مفاجئة ، حركة صادقة وبسيطة لم أكن أتوقعها أبدا ، مد ذراعه الضامرة ، ذراعه المرتعشة ، وطوق بها جوليا ، وظل يبكى دون أن يستطيع النطق بكلمة ..

وقبل أن أفيق من ذهولى ، وقبل أن أحاول أن أشعر ، أو أفهم ، أو أتأكد ، دفع بالفتاة نحوى ، وغمغم وهو ممسك بها ، وذراعه الأخرى تعانقنى : « **تزوجها .. تزوجها يا بنى فهى خير من يعنى بك بعدى ! .. ان الدم قد غسل عارك وعارها ! .. والدها قد دفع الثمن وكذلك والدتك ، وأصبحت أنت وهى**

متساوين فى العزة والكرامة والشرف ! .. فارفع رأسـك بها ولترفع رأسها بك ، وليبارك الله زواجكما ! »

فانسكب على وجه جوليا فيض غامر من نور ، وجرفتنى أنا موجة من الفزع بالرغم منى .. ثم عز علينا أنا وهى ، أنا وجوليا ، أن نودع هذا الرجل البائس العظيم الذى أشـقاه القدر ليسعدنا ، فارتمينا عليه ، وطفقنا نعانقه ونقبله ونحن نبكى ونهذى كالمجانين !

* * *

ولمـا دخل رجال الشرطة ، لم يضطـرب ولم يضعف ، بل أسرع ووجـــه مسدسه الى صدغه ليفــرض على الصمت ويهددنى . ثم نظر الينا ، أنا وجوليا ، وردد بأعلى صوته : « أهنئا بحياتكما . لقد تساويتما فى العزة والكرامةوالشرف!»

ثم تقدم فى شجاعة وشموخ . واعترف بأنه هو القاتل ، وسلم نفسه للبوليس !

* * *

وحكم على والدى بالسجن سبع سنوات ، فشرعت أنا أعمل وأكافح وآكل خبزى بعرق جبينى . **أما جوليا فقد أبت الا أن تظل طوال هذه المدة حبيبتى وخطيبتى فقط . وهـــكذا لم نتزوج الا بعد أن أفرج عن والدى وخرج معنا من ظلمة السجن الى نور الحياة .**

فى سبيل الوطن

(مسرحية فى فصل واحد)

كانت الجيوش النمسوية تحتل عام ١٨٤٠ اقليم (لومبارديا) الايطالى ٠ وكان الايطاليون يكافحون كفاح الأبطال لاجلاء الغاصب عن بلادهم واستكمال حريتها واستقلالها ٠ وهذه الحادثة التاريخية التى صاغها « ايبانيز » فى قالب تمثيلى هى صورة رائعة من صور ذلك الكفاح الوطنى المجيد ٠

المنظر

(بهو كبير فى منزل المهندس « جوليانو » ٠ فى الصدر باب عمومى ، وعن اليمين واليسار أبواب جانبية تؤدى الى غرف البيت ٠ فى الوسط نافذة كبيرة تشرف على ضاحية من ضواحى اقليم (لومبارديا) ، ويرى الناظر منها الطرف الغربى من الضاحية ، حيث مستودعات الجيش النمساوى وذخائره ٠

الوقت ليل ، والسكون مخيم على البيت ٠ فما أن يرفع الستار حتى تبدو « لويزا » حائرة قلقة تحدق الى

الساعة المثبتة فى الحائط تارة ، وتنظر الى الخارج من خصائص النافذة تارة أخرى . وفجأة يدخل «كارلو» .

المشهد الأول

(لويزا ــ كارلو)

لويزا : ما بك ؟ .. ولماذا تأخرت هكذا ؟ .. الساعة الثانية بعد منتصف الليل ! .. أنت مضطرب ، بل يخيل الى أنك محموم .. أين كنت ؟ .. تكلم ..

كارلو (فى صوت أجش) : اذهبى الى مخدعك .. كان يجب أن تكونى الآن فى سريرك ..

لويزا : هل وقع شىء ؟ .. تكلم .. ليس فى مقدورى أن أنام ! .. أنا خائفة عليك ..

كارلو : هدئى من روعك واذهبى .. اذهبى ونامى .. لقد أمضيت الليلة فى صحبة صديقى « أرماندو » ندرس معا تقريرا سريا ورد من روما الى والدى .. فأصعدى الى مخدعك ، ودعينى .. أريد أن أخلو بنفسى .. أريد أن أمضى فى مطالعة كتاب يجب أن أتمه الليلة .. اذهبى ..

لويزا (متفرسة فيه) : وكيف يمكننى أن أنام ؟ .. سأظل ساهرة ! .. قلبى يحدثنى أن شيئا مروعا قد وقع !.. لماذا تخفى الحقائق عنى ؟ .. ألست زوجتك يا كارلو ؟

كارلو (غاضبا) : أقول لك اذهبى ونامى ..

لويزا : لا تغضب .. أنا ذاهبة .. ولكنى لن أنام ! .. سأنتظرك .. وسأظل ساهرة ! .. « **وتخرج** »

المشهد الثانى

(كارلو بمفرده)

(ويسير كارلو فى الغرفة جيئة وذهابا ، وهو ممتقع الوجه مشوش الشعر ، زائغ البصر ، ثم يتلفت يمنة ويسرة كأن انسانا يطارده ٠ ثم يرتمى على مقعد ، ويرسل نفسا مستطيلا ، ويحاول جهده أن يكبح الرعدة التى تمشى فى بدنه ٠ ثم يستجمع قواه وينهض ، ويفتح خزانة قائمة فى أقصى البهو ، ويخرج منها زجاجة خمر وكوبا ، ويأخذ فى صب الخمر فى الكوب ، ويشرب وهو يغمغم) :

كارلو : رأيته بعينى رأسى !٠٠ خرج من البيت فى أثرى !٠٠ نظر الى نظرة مستربية ثم أتبعها بأخرى متهكمة ساخرة واثقة !٠٠ ثم ابتسم ٠٠ ابتسم وتحول عنى ، ومرق من الشارع المجاور ، وتركنى فى اضطرابى وحيرتى وقلقى !٠٠ من هو ذلك الرجل ؟ ٠٠ أتراه قد فطن الى شىء ؟ ٠٠ أيمكن أن يكون قد دخل ذلك المنزل بعد أن خرجت أنا منه ؟ ٠٠ لا ٠٠ لا أعتقد ٠٠ ومع ذلك فنظراته تبعث الشك فى نفسى ، وتقلبنى على جمر النار ! ٠٠ ليكن ٠٠ ليكن الآن ما يكون !

(ويهم بأن يشرب كوبا آخر ، فيفتح باب الصدر فجأة ، ويبدو منه والده السنيور جوليانو ٠ فيرتعش الشاب ويرتبك ولا يعرف كيف يخفى الزجاجة والكوب) ٠

المشهد الثالث

(كارلو – جوليانو)

جوليانو (فى صرامة) : أتشرب خمرا ؟٠٠ ألم أحرم عليك منذ أكثر من عام تناول كأس واحـــدة من الخمر ؟ ٠٠ ألم تعاهدنى على ذلك ؟ ٠٠ كيف يمكن أن تضبط لسانك ، وتتحكم فى أعصــابك ، وتكتم أسرارنا ، وأنت تشرب الخمــر ؟ ٠٠ ضع الزجاجة فى مكانها ٠٠ أنها ليست لك ٠٠ أنها لمن نشتبه نحن فيه ونحاول أن نحل عقدة لسانه ! ٠٠ أما أنت ٠٠ أنت الذى تريد أن تكون فدائيا مجاهدا ٠٠ أنت الذى تريد أن تهب نفسك لخدمة بلادك ، فلا يجب أن تشرب الخمر أبدا !

(يسرع كارلو ويضـــع الزجاجة والكوب فى الخزانة ثم يعود وهو يتطوح ويوشك أن يسقط) ٠

جوليانو : ما بك ؟

كارلو : صداع طارىء شديد ألم بى فاجهدنى ٠

جوليانو : أتكون شابا وتشكو الصداع ؟٠٠ خذ ٠٠ هذه سيجارة ٠٠ رفه عن نفسك بتدخينها ، وأدن منى ، وارهف السمع ٠ وتنبه ٠٠

كارلو : أنا مصغ اليك يا والدى ٠٠

جوليانو : الليلة ! ٠٠ لقد اعتزمنا أن ننفذ خطتنا الليلة!٠٠ والقد أصدرت أمرى الى الرفاق جميعا بأن يتهيأوا الليلة للعمل!

كارلو : فى أى مكان ؟

جوليانو : سنجتمع فى ساحة الكاتدرائية ٠

كارلو : فى أية ساعة ؟

جوليانو : فى الساعة الثالثة تماما ، أى بعد وقت قصير ..

كارلو : وأنا .. ماذا يجب أن أفعل ؟

جوليانو : تقبع فى حانة الأم فرانشيسكا ، وتحرس مؤخرتنا ، وتسرع بتنبيهنا الى الخطر اذا شعرت أن البوليس يحوم حولنا .

كارلو : هل أعددتم القذائف ؟

جوليانو : أنها فى حوزة اميليو ، وحالما تدق ساعة الكاتدرائية الثالثة تماما ، سننطلق من مكمننا ، ونتجه صوب مستودعات الذخيرة التى أقامها النمساويون فى الطرف الغربى من الضاحية ، وننسفها بقذائفنا ، ولو متنا جميعا مستشهدين فى سبيل بلادنا ! .. فهذه اللحظة يا كارلو قد تكون آخر لحظات حياتى . فأنا أوصيك بوطنك قبل أن أوصيك بزوجتك وأمك واخوتك . أوصيك باستطراد جهادى ، واستكمال رسالتى ، والسعى بكل قوى عقلك وقلبك لطرد الغاصب عن بلادك ، وتحقيق حريتها واستقلالها . فعاهدنى على الوفاء . عاهدنى على الثبات ، كى تهدأ نفسى ، وتطمئن روحى ، فيما لو قدر لى أن أموت !

كارلو : أنت قدوتنا جميعا يا أبى ، منك تعلمنا البسالة والاقدام ، ولولا وطنيتك الصادقة ما اخترناك أبدا زعيما لنا . فلا تحقرنى بكلامك هذا ، وثق أنى سأباريك فى الوفاء البلادى ، وأكون خليقا بك فى أية مناسبة ..

جوليانو : اذن فقبلنى وانبذ الخمر ، والزم الصمت واياك أن تتكلم ! (**يتعانقان**) لاتفض بشىء الى زوجتك . أما أمك

واخوتك الصغار فسيهتم عمك بهم ، وسينفق عليهم مما ادخرته أنا لهم ! ٠٠ الوداع ! ٠٠ يجب أن أذهب ! ٠٠ اميليو ينتظرني ! ٠٠ فالبث أنت الآن هنا ٠٠ لا يجب أن تخرج في صحبتي ٠٠ ومتى انقضى بعض الوقت ، فأسرع الى حانة الأم فرانشيسكا ، وأمكث هناك حتى الساعة الثالثة ، الثالثة تماما ، وراقب الطريق ، وتنبه ٠٠ الوداع ! ٠٠ **(ويتعانقان مرة ثانية)** ٠

كارلو : بل الى الملتقى يا والدي !

جوليانو : سيان عندي ٠ لقد نذرت نفسي لبلادي ٠ ولو نجوت اليوم فلا بد أن أهلك غدا ٠ ولكن في هذا الهلاك سعادتي ! الوداع ! ٠٠ **(ويخرج)**

المشهد الثالث

(كارلو بمفرده)

(يسرع فينتزع من صداره جرابا صغيرا ، ثم يستل من الجراب خنجرا ملوثا بالدم ٠ ثم يمسح الخنجر بمنديله ويذهب فيلقي بالمنديل في المدفأة ٠ ولما يبصر النار تتصاعد وتلتهم المنديل ، يتنفس الصعداء ، ويهم بأن يتجه نحو باب الصندر ٠ وعندئذ يسمع من أقصى حديقة البيت صوت الخادم العجوز يقول : « أتوقظني في مثل هذه الساعة ! ٠٠ نعم ٠ انه هنا ٠٠ تفضل ٠٠ تفضل وادخل ٠٠ » ٠٠ فيرتعش كارلو ويتقهقر ، ويعرف في الطارق الغريب الرجل الذي كان

يحوم حوله . فيظل جامدا ، بينما يدخل الرجل فى بطء ، ويحييه مبتسما ، ثم يستأذن ويتحول ويوصد الباب !)

المشهد الرابع

(كارلو – الرجل الغريب)

كارلو (مقطبا حاجبيه) : لم أتشرف بمعرفتك ياسيدى .. لقد لمحتك فى الشارع منذ لحظات .. وأحسست أنك تقتفى أثرى .. فلماذا تتعقبنى .. ومن أنت ، وماذا تريد منى ؟

الرجل (مبتسما) : هون عليك واجلس . ثم قل لى .. ماذا كنت تفعل منذ لحظات فى منزل الضابط النمساوى توماس؟ .. لماذا ذهبت الى هناك فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ، ولماذا غادرت المنزل وأنت ترتجف وتتلفت وتنسل انسلالا كما يفعل اللص ؟ .. تكلم ..

كارلو : وأنت أى حق لك على كى تسمح لنفسك بالتدخل فى شئونى ؟ .. أمط النقاب عن شخصيتك أولا أو تفضل بالخروج من هنا حالا !

الرجل (ضاحكا) : أتريد أن تعرفنى ؟

كارلو : من أنت وما شأنك بى ؟

الرجل : لحظة واحدة ياسنيور كارلو .

(وينهض الرجل وينتزع فى هدوء لحيته المستعارة وشعر حاجبيه الكثيف والقبعة المستديرة التى تحجب جبينه وعينيه)

كارلو (صارخا) : السنيور هنريك ؟! رئيس البوليس النمساوى ؟!

هنريك : هو بعينه !٠٠ لا تضطرب ٠٠ أجلس الآن ، واصغ الى ٠٠ **(وفى صيحة مروعة جشاء)** ٠٠ أنت ٠٠ أنت الذى قتلت الليلة الضابط النمساوى توماس ياسيد كارلو ! ٠٠ لقد راقبتك أياما طويلة وأنت لا تدرى ! ٠٠ أتذكر ٠٠ أتذكر يوم الأحد الماضى عندما كنت فى منزل صديق لك من الفدائيين أمثالك ، وصارحت بأن فى نيتك أن تغتال الضابط النمساوى توماس ، لأنه قمع الثورة التى قام بها نفر من الايطاليين الأحرار فى سهول الومبارديا ؟ ٠٠ لقد تهورت فى كلامك يا صديقى وغاب عنك أن خادم المنزل كان نمساويا يحمل جواز سفر ايطاليا ، وأنه كان جاسوسنا عليكم فى بيت صديقك ، وانه اتصل بى فورا وأبلغنى كل شىء ! ٠٠ فأنت ٠٠ أنت الذى قتلت الضابط ٠٠ وأنا ٠٠ أنا ٠٠ كنت أحوم حواليك ، ولكنى تركتك تقتل !٠٠ ضحيت بذلك الجندى الباسل وتركتك تقتله !٠٠ أتدرى لماذا ؟٠٠ أتدرى لماذا ؟

كارلو (شامخا) : لا يهمنى تدبيرك ٠ نعم أنا الذى أديت واجبى الوطنى وقتلت ٠ فاذا شئت أن تلقى القبض على فأنا رهن اشارتك !

هنريك (مبتسما) : بل أنا أريد أن أنقذك !

كارلو (محدقا اليه) : أتريد أن تنقذنى أم تريد أن تساومنى ؟

هنريك : يا لك من فتى ذكى . فاستعن بذكائك واصغ أيضا الى . أنت شاب فى مقتبل العمر ، تحب الى حد العبادة زوجة رائعة الحسن لم يمض على اقترانك بها أكثر من عام واحد . فلماذا تضحى بمستقبلك وحياتك وحبك من أجل أوهام وطنية مستحيلة التحقيق ؟.. عش وامرح وتمتع .. انتهز الفرصة .. اقتنص الحياة .. الحياة التى أمنحك اياها أنا .. أتفهم ؟ .. لن أمسك بسوء ! .. لن أكشف النقاب عن جريمتك !.. لن أقبض عليك !.. لن أدفعك الى حبل المشنقة ! .. سأعطيك الآن اذنا رسميا يخول لك حق مغادرة لومبارديا أنت وزوجتك لويزا .. وسأوقعه أمامك .. وأهبك فوق ذلك مبلغا كبيرا من المال يكفيك أشهرا حتى تعثر على عمل ..

كارلو (فى هدوء) : وشروطك ؟ .. ما هى شروطك ؟ .. أسرع ..

هنريك (منحنيا عليه) : أنت تعلم أن والدك وأصحابه يتهيأون لنسف مستودعات ذخائرنا القائمة فى غرب الضاحية .. فأنا أريد أن أعرف الساعة التى اتفقوا عليها لتنفيذ خطتهم ! .. أريد أن أعرف اليوم والساعة بالضبط ! .. وستقولهما أنت لى ! .. أما اذا تمنعت أو راوغت أو حاولت تضليلى ، فلن أرحمك أبدا ! .. الجريمة ثابتة عليك ، ورجال الشرطة أتباعى قد أبصروك أيضا وأنت تغادر منزل الضابط بعد الجريمة . فأنعم النظر وتخير .. تخير بين الوهم والواقع ، بين الموت والحياة ، بين المشنقة والحرية !

كارلو (يثبت نظره فى الرجل ثم يصطنع القلق والاضطراب ويغمغم) : الحياة ٠٠ لويزا ٠٠ نعم ٠ ستموت هى أيضا لو مت أنا !٠٠ سيقضى عليها لو ألقى القبض على أنا !

هنريك (صارخا) : اذن فانقذها وانقذ نفسك ، وأجبنى ٠٠ متى ٠٠ متى سيجتمع والدك برفاقه ؟ ٠٠ فى أى يوم ، وفى أية ساعة ، فى أية ساعة بالضبط سينسفون المستودع ؟ ٠٠ تكلم !

كارلو (يرمق الرجل بنظرة جانبية وهو يتخاذل متعمدا ويرتعش) : رحماك ٠٠ لا أستطيع ٠٠ كيف ٠٠ كيف يمكن أن أضحى برجل هو والدى وزعيمى ؟!٠٠ ثم أنه لن يموت وحده بل سيموت هو وجميع أنصاره أيضا ! ٠٠ هذا فظيع !

هنريك : اذن فمت أنت ٠ مت أنت واقتل زوجتك البريئة بيدك !

كارلو (صائحا) : كلا ٠٠ هذا فوق طاقتى ! ٠٠ لم أكن أتوقع ! ٠٠ لم أكن أتصور ٠٠ أكتب ٠٠ أكتب جواز المرور ، وهات المال ٠٠

هنريك (يتأمل الشاب فترة ثم يوقع الجواز ويدفعه اليه مع المبلغ) : تكلم الآن ٠٠ اليوم والساعة ؟٠٠ اليوم والساعة بالضبط ؟٠٠ تكلم ٠٠

كارلو (يشيح بوجهه ثم يطرق برأسه كأنه منسحق) : فى الساعة الثانية من ليلة يوم الأربعاء القادم ٠٠ أى بعد ثلاثة أيام ٠٠

هنريك (وهو ما يزال يتأمله) : احذر الكذب والا غامرت بحياتك ! ٠٠ سيقتفى رجالى أثرك ويقتلونك حتى ولو كنت فى روما نفسها !

كارلو : ما تعودت قط أن أكذب ٠٠

هنريك (يتفرس فيه ويبتسم) : عظيم ٠٠ عظيم جدا ٠٠ سأبعد رجالى اذن ، وانتظر حتى ليلة الأربعاء لأرى ما اذا كنت فى الحق قد صدقت !٠٠ طاب ليلك ٠٠

(ويحييه فى أدب بالغ ويخرج ٠ وما أن يحس كارلو أن الرجل قد أوصد خلفه الباب حتى يشرق وجهه وتنبسط أساريره وينفجر من تلقاء نفسه ضاحكا مقهقها ٠ ثم يتجه نحو الخزانة القائمة فى أقصى البهو ويهم بأن يتناول زجاجة الخمر ويشرب ٠ وعندئذ يفتح أحد الأبواب الجانبية فى عنف وتبرز منه لويزا)

المشهد الخامس

(كارلو – لويزا)

كارلو (صارخا) : أنت ؟ ٠٠ لم تذهبى الى مخدعك بعد ؟

لويزا : كنت خائفة عليك ، فمكثت هنا بجوارك خلف الابواب ، وسمعت ٠٠ سمعت كل شىء ٠٠ كل شىء ٠٠ سمعت ما قاله والدك وماقاله رئيس البوليس النمساوى!٠٠ **(وترتمى على صدر زوجها وتصرخ)** آه ! ٠٠ سيقتلك لا محالة ! لقد كذبت عليه وضللته وعبثت به ! ٠٠

(وتستطرد وهى تكاد تمزق نفسها) ولكن هل كان فى مقدورك وأنت الفدائى المجاهد أن تفعل غير هذا ؟ .. هل كان فى مقدورك أن تجهر بالحقيقة وتقول لرئيس البوليس ان ساعة التنفيذ هى الساعة الثالثة من هذه الليلة ، فتتنكر لمبادئك وتخون وطنك وتهلك والدك وأنصاره ؟ .. هذا مستحيل ! .. لقد ضحيت بنفسك وأصبح موتك محتما يا حبيبى ! .. ستموت يا كارلو ! .. فكيف ، كيف يمكن أن أعيش أنا من بعدك ؟ .. لن أعيش ! .. لا أريد أن أعيش ! .. ان جل ما أتمناه فى هذه اللحظة هو أن أكون خليقة بك ، وأن أقدم أنا أيضا على عمل عظيم يرفعنى الى مستواك ويجعل منى شهيدة وضحية ! .. فاعهد الى بأى شىء .. مرنى بأى شىء .. حملنى أقسى المهام الوطنية وأشقها . وثق أنى سأقتدى بك ، وسأعرف كيف أجاهد ، وكيف أبذل ، وكيف أموت مهتدية بنار الوطنية المقدسة التى يضطرم بها قلبك وقلوب جميع الفدائيين !

كارلو : مكانك هنا يا لويزا . أنت العاطفة المتقدة . أنت الشعلة الحية . فاكتفى باضرام نار الثقة والايمان فى صدور من حولك . هذه هى مهمتك ! .. حاربى الضعف . قاومى الخوف والجبن والتواكل والاستخذاء ، ولا تفكرى فى أنا .. لست شيئا مذكورا يا لويزا .. ولا يمكن أن يكون حبنا هو الآخر شيئا مذكورا اذا قيس بمستقبل وطننا ! .. فضعى الواجب فوق الحب ، وصونى حياتك الغالية ما استطعت ، وأعلمى انى لن أموت قرير النفس سعيدا الا اذا عشت أنت،

وحملت رسالتى ، واستطردت جهادى ، وكافحت بعقلك وقلبك ولسانك من أجل مستقبل بلادنا وحريتها ومجدها!٠٠ انى أعبدك يا لويزا ٠ ومع ذلك فيجب أن أتخلى عنك ٠ يجب أن أضحى بك أنت أيضا ٠ يجب أن أحرم منك ومن جميع مفاتن الدنيا وأنا ثابت وهادىء ومطمئن ٠ فلا تدعى الضعف يتطرق الى نفسى ٠ كونى قوية وتحملى ٠ كونى قوية وعيشى واعملى ٠ ثم تزوجى ٠٠ تزوجى يا لويزا وافرحى ٠٠ هذه وصيتى ٠٠ ووصية الشهيد مقدسة ويجب أن تحترم !

لويزا : ولكن تأدية الواجب أقدس منها وأروع ! ٠٠ فلا تظن أنى دونك ايمانا وقوة ! لا تظن أنى عاجزة عن القيام بعمل عظيم يساوينى بك وأموت فى سبيل تأديته كما ستموت أنت ! ٠٠ ان قلبى هو قلب فدائى مثل قلبك عامر بحب بلادى ٠ فلا حق لك فى اجبارى على الحياة اذا كنت أريد أن أضحى وأريد أن أغامر وأموت !

كارلو : أنت وشأنك ٠ لقد أبرأت ذمتى ، ومن واجبى الآن أن أرحل (**وينظر فى الساعة المثبتة فى الحائط**) الساعة الثانية والنصف تماما ، ويجب أن أذهب الى حانة الأم فرنشيسكا كما أمرنى والدى ! ٠٠ ومتى دقت الساعة الثالثة، ونفذت الخطة، ونسفت مستودعات الذخيرة، فسيجن ولاريب جنون رئيس البوليس ، ويعلم أنى خدعته ، فيلقى القبض على ويأمر بشنقى ! ٠٠ فالوداع يا لويزا ٠٠ قد لا أعود ! ٠٠ قد لا أراك مرة ثانية ! ٠٠ فقبلينى ٠٠ قبلينى يا حبيبتى ٠٠ وعسى أن يثوب عقلك الى رشده وتدركى أن حياتك غالية ،

وأن في وسعك أن تخدمي الوطن وأنت حية أكثر ألف مرة مما يمكن أن تخدميه لو غامرت بحياتك في مهمة شاقة وأصبحت جثة هامدة . الوداع .. !

لويزا (تقبله وهي تحبس دموعها) : الوداع يا كارلو .. والكن أذكر .. أذكر يا حبيبي أنك أنت نفسك قد قلت لي أني يجب أن أضع الواجب فوق الحب ! .. الوداع !

(ويقبلها أيضا ثم يتملص من بين ذراعيها مغالبا دموعه ويخرج . فتسرع لويزا الى النافذة وتفتحها وتظل تتبع زوجها النظر وهي تلوح بيدها وتبكي . وفجأة وفي ضوء القمر ، يترامى بصرها الى الطريق المواجه للطريق الذي سلكه كارلو ، فتنعم النظر جيدا ، فتأخذ عيناها هيكل رجل مقبل على البيت . فتتأمله لحظة ، فتتعرف فيه هنريك رئيس البوليس .. فتستغرب عودته ، وتظل فترة تحدق فيه وقلبها يخفق . ثم تختلج اختلاجا عنيفا ، ويبرق في ذهنها خاطر عجيب يملك عليها مشاعرها بغتة ويأسرها . فتوصد النافذة وعيناها تلمعان ، وتسبق الرجل الى الباب فتفتحه وتقول مرحبة وهي تصطنع جهدها الرقة والبشاشة والابتهاج) .

المشهد السادس

(لويزا — هنريك)

لويزا : تفضل .. تفضل ياسيدي .. هل نسيت شيئا؟ .. هل فقد منك شيء ؟ .. ان زوجي ليس هنا ، والجميع نيام ،

وأنا وحدى ما زلت ساهرة ·· فتفضل مع ذلك وادخل ·· واذا كنت قد عدت لتتحدث الى كارلو فى نفس الموضوع ، فيمكنك أن تخاطبنى أنا لأن زوجى قد أطلعنى على كل شىء··

هنريك : أين هو كارلو ، والى أين ذهب ؟

لويزا (فى دهاء ومكر وفى صوت متهدج عذب رخيم) : ان أمه مريضة ياسيدى ·· فوجئت بنوبة قلبية حادة ··فأسرع هو يستدعى الطبيب ·· تفضل واصعد الى الطابق الأعلى لتتأكد ··

هنريك : لا ·· العجوز لا تهمنى ·· الواقع أنى ما عدت الا لأراك أنت واجلس اليك على انفراد ··

لويزا : أنا يا سيدى ؟ !

هنريك (وهو يتأملها) : أنك لجميلة ورقيقة · ولطالما أعربت للناس عن اعجابى بظرفك الساحر وجمالك الفتان !

لويزا (وهى تمالئه) : ان قيمة التقدير فى قيمة صاحبه يا سيدى · وهذه العبارات منك تساوى عندى ملك الدنيا ، وان كنت لا أستحقها · بأى لسان أشكرك على ما أسديته الينا من جميل ! ·· أنت بعد الله ملجؤنا وملاذنا !

هنريك : أحقا ؟

لويزا : وهل تشك لحظة واحدة فى أنى صادقة ؟

هنريك : أعتقد ·· أعتقد أن مثل هذا الجمال لا يمكن أن يكذب ، ولذلك سأتكلم وأصارحك بكل شىء · فاسمعى · أنا لست مستريحا لما قاله كارلو ·· لم أطمئن اليه ·· أحسست أنه يوارينى بل شعرت شعورا عميقا أنه يريد أن

يضللنى ويخدعنى ! ٠٠ لهذا عدت ٠٠ عدت عازما على معرفة الحقيقة منك أنت ! ٠٠ أن الرجل قد يكذب مدفوعا بوطنيته ومستخفا فى سبيلها بالموت المحتم الذى ينتظره ٠ أما المرأة فأوثق صلة بالواقع منه ، وقلبها هو الذى يهديها ، والحياة عزيزة عليها ، وهى لا يمكن أن تفرط فيها ولا سيما اذا كانت تحب ٠ فاذا كان زوجك قد كذب على فهو لن يفلت منى ومن حبل المشنقة ٠ واذا كذبت أنت الآن أيضا على ، شاركته فى الجريمة واستهدفت لنفس المصير ! ٠٠ فانقذى حبك ومستقبلك وحياتك وصارحينى : هل صحيح ما قاله لى زوجك من أن موعد تنفيذ الخطة المرسومة لنسف مستودعات ذخائرنا هو الساعة الثانية من ليلة الأربعاء القادم ؟ ٠٠ أجيبى ٠٠

لويزا (تجاهد بكل ما أوتيت من قوة وترسل صيحة مدوية كأنها تنبعث من صميم قلبها) : انه صادق يا سيدى ! ٠٠ لم يخدعك أبدا ! لم يضللك ! واذا كنت فى شك من كلامى فأنا أقسم لك ٠٠ أقسم لك أن زوجى كان صادقا !

هنريك (يتأملها لحظة وينهض) : كفى ٠ ان هذا الصوت يملأ نفسى باليقين ٠ شكرا لك يا سيدتى وحظا سعيدا ٠

(ويهم بالخروج ، فتتلفت هى كمخبولة وتنظر فى الساعة المثبتة فى الحائط ثم تندفع نحو الرجل وتتشبث به فى رفق وتصيح) :

لويزا : لا ٠٠ لن تخرج هكذا ! ٠٠ محال ! ٠٠ لقد طوقت أعناقنا بفضل غامر لا ينسى ٠ فلا أقل من أن نقدم اليك كأسا من الخمر ٠٠ كأسا من الخمر ٠٠ كأسا من يدى أنا ! ٠٠

لحظة واحدة .. لحظة واحدة فقط .. **(وتسرع الى الخزانة وتخرج منها زجاجة خمر وكوبين وسكينا وطبقا وبعض الفاكهة . ثم تصب الخمر فى كوب وتناوله لهنريك وتشرع فى تقشير تفاحة وهى تحدق الى الرجل وقلبها يخفق وعيناها تخالسان ساعة الحائط)** اشرب ياسيدى .. اشرب نخب شـهامتك ونبلك ! .. الحياة جميلة ولا يجب أن نضيعها فى الترهات ..

هنريك (وهو يشرب) : صحيح .. ولا سيما متى كان الجمال يزينها ويلهبها ! .. وانت جميلة بل رائعة الجمال! .. فاشربى معى . اشربى ولو كأسا واحدة أنت أيضا ..

لويزا (تصب الخمر فى كوبها ثم ترفعه وتدقه بكوبه وهى تبتسم) : فى صحتك !

هنريك (متشجعا) : ان لون الخمر يشبه لون عينيك .. ما أشد شوقى الى مزيد من الخمر والنظرات الساحرة !

لويزا : اليك الخمر .. والنظرات أيضا .. **(وتملأ له الكوب وهى تدنو منه عامدة وتتثنى)**

هنريك (هاتفا) : ما رأت عينى غصنا فاتنا كهذا الغصن الناضر الحى ! .. **(ويزحف اليها ويحاول أن يعانقها)**

لويزا (تتملص منه) : مهلا .. مهلا .. ألا تخشى أن يعود زوجى ؟

هنريك : قبلة .. قبلة واحدة وأمضى ..

لويزا (صائحة وهى تتشبث به) : لا .. بل ابق .. لن يعود زوجى قبل نصف ساعة على الأقل .. سأعطيك كل شىء .. سأمنحك كل شىء .. ما أجدرك بهبة رائعة تعادل الفضل

العظيم الذى غمرتنا به ! ٠٠ ولكن اشرب ٠٠ اشرب أولا ٠٠ هذه ساعة العمر وقد لا أراك مرة ثانيـــة يا هنريك ! ٠٠ لمـاذا يجب أن أرحل ؟ ٠٠ لمـاذا يجب أن أغادر لومبارديا ؟٠٠ لمـاذا يجب أن أعيش فى صحبة أولئك الفدائيين المتهوسين ، اتقلب فى غمرة هذا القلق الدائم والعذاب المتصل ؟ ٠٠ ليتنى ما عرفت كارلو وما تزوجته !

هنريك : ماذا تقولين ؟

لويزا : لقد أحببتك يا هنريك منذ أن رأيتك أول مرة ! ٠٠ أحببتك منذ أن وقع بصرى عليك من خصاص هذا الباب !٠٠ فاذا كنت أنت أيضا تشعر ولو ببعض الحب نحـوى فأسرع لنجدتى وأنقذنى !

هنريك : ماذا تطلبين ؟ ٠٠ تكلمى ٠٠

لويزا (تميل عليه كأنها تهم بعناقه) : أريد أن أتحرر٠٠ أريد أن أنفصل عن كارلو واتبعك ! ٠٠ انه مجرم ! ألم يقتل الضابط النمساوى ؟ فلماذا لا تقبض عليه وتأمر وباعدامـه وتأخذنى ؟

هنريك : أتريدين ؟

لويزا : حياتى ونفسى طوع أمرك لو فعلت ٠

هنريك (صائحا) : لك ذلك يا بهجة روحى ! ٠٠ ولكن بعد يوم الأربعاء ٠٠ بعد أن أقبض عليهم جميعا : الوالد والولد والعصابة كلها ! ٠٠ اشربى ٠٠ اشربى وتعالى ٠٠ تعالى الى٠٠ وامنحينى قبلة ٠٠ قبلة واحدة ٠٠ قبلة واحدة فقط ٠٠

لويزا (تنظر فى الساعة فتلمح انها الثالثة الا بضع دقائق ٠

فترتمى على هنريك شبه مشغوفة وتغمغم) : خـذنى ! ٠٠ ضمنى الى صدرك ! ٠٠ قبلنى ! ٠٠ قبلنى وخذنى ! ٠٠

(وقبل أن يعانقها تسرع بالتملص منه وتصيح) ولكن لنفتح النافـذة أولا ٠٠ لنتـأكد من أن زوجى لم يأت بعـد ٠٠

(وتفتح النافذة على مصراعيها ثم ترتد وترفـع بصرها الى الساعة فترى انها قد بلغت الثالثة تماما ٠ فتنتفض أعضاؤها، وتبرق عيناها بريقا مروعا ، وتدفـع بهنريك الى النافـذة وتصرخ كمعتوهة) انظر ٠٠ هناك ٠٠ فى غرب الضاحية ٠٠ انظر ؟ ٠٠ انظر الى مستودعات ذخائركم ؟ ٠٠ الى عظمـة بلادكم ؟ ٠٠ الى مجد امبراطوريتكم ؟ ٠٠ كل هذا سيتصدع بعد ثانية وينهار ! ٠٠ قبلنى ٠٠ قبلنى الآن ان استطعت !٠٠

(فيتطلع اليها هنريك تائها مذهولا ٠ وعندئذ يسمع دوى انفجار هائل تنخلع له السماء وترتـج جـدران البيت ٠ فتتراجع لويزا وتقهقه قهقهة وحشية قاصفة ٠ فيستفيق هنريك من نشوته ، ويفطن الى المكيدة،ويدرك أن المستودعات كلها قد نسفت ٠ فيجن جنونه ، وينقض على لويزا ٠ فتروغ منه ، وتحتمى بالمـائدة ، فيندفـع اليها واثبا هو يصيح) :

هنريك : أيتها الفاجرة ! ٠٠ لقد خدعتنى أنت أيضا !٠٠ ولكن زوجك سيموت ! ٠٠ أتسمعين ؟ ٠٠ سيموت ! ٠٠ ولقد أمرت رجالى بأن يقتلوه اذا ثبت عليه انه كان كاذبا !٠٠ وسيموت ! ٠٠ سيموت كارلو !

(ويتمكن منها ويمسك بها ويحاول أن ينشب فى عنقهـا

أظافره . ولكنها تتملص منه ، وتدفعه عنها في عنف ، ثم تغافله وترتمي على المائدة ، وتخطف منها السكين)

لويزا (صارخة) : وأنا .. أنا أيضا سأموت وأتبع كارلو !

(وتستجمع قواها وتغمد السكين في عنق هنريك . فيتهاوى الرجل على نفسه ، ويسقط على الأرض مضرجا بدمه . فتظل لويزا في مكانها جامدة ساهمة منتشية تحدق الى الجثة الهامدة بعينين جاحظتين شامتتين .. وتبتسم)

ويسدل الستار

لعنة البصر

كان الراعى « ارماندو » قابعا فى زاوية كوخه يفكر فى حظه التاعس ، ويتأمل السحب الكثيفة تنعقد فى صفحة السماء ، وتتخذ أشكالا غريبة تلقى الرعب فى القلوب .

وكانت الريح تعصف فى الخارج ، والرعد يدوى ، والمطر يهطل ، والطبيعة الغضبى تهز جوانب الكوخ .

وبعد فترة ، وكأنما قد مس السماء سحر ساحر ، هدأت الريح ، وسكن الرعد ، وانقطع المطر ، وعادت الشمس فأشرقت على القرية .

وتنفس الشاب الصعداء ، وأوشك أن يبتسم للشمس المشرقة ، ولكن حزنه العميق تغلب عليه ، فطمر وجهه بين راحتيه وبكى ..

وفجأة ، تحامل على نفسه ونهض ثم دخل غرفة نومه ، وتناول مرآة كانت ملقاة على صندوق ملابسه العتيق ، ثم جلس على حافة سريره ، ورفع المرآة وجعل يحدق اليها متفرسا فى عينيه المتقدتين الساحرتين ..

يا لها من لعنة تلك التى حلت عليه منذ أقبل على هذه الدنيا؟! أية قوة تلك التى أودعتها الطبيعة فى عينيه ! .. انه لمثال الدمامة والقبح . ومع ذلك فالفتنة المروعة تكمن فى حدقتيه

وتختلج فى نظراته ، وتشع من خلال أهدابه الطويلة المرتعشة !

انه ضخم الرأس ، محدودب الظهـر ، كبير الانف ، غائر الخدين ، غليظ الشفتين ، ولكن سحر عينيه يطغى على دمامته ويضفى على محياه حلة ناصعة من نور ٠

أجل ٠ ان فى عينيه لنورا ساطعا وجمالا خارقا ، ولـكن فيهما أيضا وهج نار ٠ فيهما قوة شريرة جعلتهما ذعر أهـل القرية جميعا !

تلك هى اللعنة التى حلت عليه ، والتى لن يستطيع التخلص منها الا يوم يموت !

جميع سكان تلك القرية الكورسيكية ، أولئك المزارعـون السذج البسطاء الذين يعيشون على الفطرة ويؤمنون بالخرافات ، جميعهم يتبرمون به ، وينصرفون عنه ، ويخشون التحـدث اليه ، ويعتقدون اعتقادا راسخا أن عينيه تجلبان الشر ، وأن جمالهما يورث الموت ، وان الحسد يندلع منهما كالنار ، وان نظرة منهما تكفى لقتل الماشية واتلاف الزرع وازهاق أرواح الناس !

ولقد شاعت هذه الفكرة وآمن بها الكل منـــذ ذلك اليوم المشئوم الذى دخل فيه أرماندو مزرعة شيخ القرية ، فشاء القدر ان تصاب امرأة الشيخ فى نفس اليوم بالحمى ، وأن تموت ابنته فى نفس الليلة أيضا ٠٠

أجل ٠ هو مروع كأجرب ، مقصى كموبوء ، يعيش فى صحبة مواشيه ، ولا صديق له غير كلبه ، ولا أنيس غير مزماره ، ينفخ فيه ساعة الألم والحسرة ، فيخرج منه أرق وأعذب الانغام ٠

بيد انه اليوم لم يفكر فى تسلية نفسه بالنفخ فى المزمار ، أو جدل حبل من القنب ، أوصيد بعض الطيور ، أوالخروج بمواشيه الى المراعى .

كان ذهنه منصرفا الى شىء آخر ، الى صورة باهرة الحسن ، الى العذراء الصبوح الوجه ، الناضرة الشائقة الرقيقة «ماريا» بنت شيخ القرية ، وشقيقة الفتاة التى اتهموه بقتلها فيما مضى ، ونسبوا موتها المفاجىء الى قوة الشر الكامنة فيه ، والى اللعنة المنبعثة من عينيه .

لم تؤمن ماريا بما آمن به الجميع . لم تصدق أن ارماندو كان السبب فى مرض أمها وموت شقيقتها .

تحدت أهل القرية واعتقدت انه برىء . أشفقت عليه ، ورثت لحاله ، واجترأت على الدنو منه ، وأقدمت على مخاطبته ، ولم تحفل لحظة واحدة بلعنة عينيه ..

والواقع انها أحبته من حيث لا تدرى . ولقد أحبت فيه نفس تلك الجاذبية الخارقة المستقرة فى عينيه . أحبت نورهما الساطع العميق ، وسوادهما القاتم المهيب ، وبياضهما الناصع الرجراج ، ونظراتهما الوجلة الحزينة ، وأهدابهما المتراقصة البديعة ، وذلك الحظ العاثر الذى يرفرف عليهما كطائر مشئوم ..

أجل أحبته ، وغافلت والدها ، وجاءت بالامس اليه . كانت هنا . فى هذا الكوخ . فى هذه الحجرة العارية العابسة .

جلست على هذه الارض ، ونظرت الى هذه الاشياء ، وباركت بمحض وجودها هذا البؤس وهذا العذاب .

ولكن كيف يمكن لرجل مثل أرماندو أن يرفع البصر اليها ؟

ان والدها الموتور يخافه ويبغضه ، ومن المحال أن يرضى بزواجها منه • اذن فيجب أن يذهب بها من هنا ، أن يفر بها من هنا ، أن يفر بها الى بلد سحيق ، أن يخطفها ويستهدف واياها لخطر التشرد والموت •

وحتى لو فعل ، حتى لو فاز بها ، فقد تحل لعنته عليها ، وقد يصيبها نكد طالعه ، فتموت قبل أن تنعم بلذة الدنيا !

كلا • لن يذعن لها • لن يفر معها • لن يقترن بها • سيرحمها من نفسه ، ويرحمها من عينيه ، ويطوى على حبها صدره ، ويصارحها الآن بعزمه ، ويلتمس اليها أن تكف عن زيارته وتنصرف عنه بسلام •

وفجأة لاحت ماريا عن بعد ، مديدة القامة ، ممشوقة القد ، مرسلة الشعر ، ترفل فى حلة فضفاضة سوداء وتتقدم بخطى وئيدة حذرة صوب الكوخ ••

وما أن أبصرت ارماندو وقد خف لاستقبالها ، حتى تألق وجهها ، وأشرقت ابتسامتها ، ودخلت الكوخ وأوصدت بابه فى رفق خلفها ••

ورفعت رأسها ، ونظرت الى عينى حبيبها • فتولتها رجفة اعجاب وولع وتقديس • فانحنت عليه وهمست فى أذنه وصوتها يفيض رقة وشفقة وحنانا :

ــ علام استقر عزمك يا أرماندو ؟

فأشاح بوجهه وأجاب : « لن أستطيع ! »

فأمسكت بذراعه وهزتها هزا عنيفا ، وقالت :

- انقذ نفسك وانقذنى ! ٠٠ فر من هنا بنفسك وبى ! ٠٠ لن يرحمك والدى ولن يرحمنى لو علم بحبى لك وحبك لى !

فغمغم أرماندو وهو يقصيها عنه فى رفق وقلبه يكاد يتفطر :

- لست لى ياماريا ولست لك ٠٠ لن أربط حظك بحظى ، ولن أحبك لأشقيك ٠ وحسبى منك هذا العطف فهو غاية أملى ٠ اذهبى يا حبيبتى ودعينى ، اذ كيف أستطيع أن أسعدك وأنا عاجز عن اسعاد نفسى ؟

وأطرق واغرورقت عيناه بالدموع ٠ فرفعت الفتاة رأسه بيدها ، وحدقت الى عينيه كأنما هى تغالب القدر وتتحداه ، ثم انحنت وتناولت يده وقالت وهى تقبلها :

- لا تدعنى ليأسى يا أرماندو ٠ اذهب بى ٠ خذنى من هنا ٠ أنا زوجتك أمام الله والناس ٠ لن أتخلى عنك ٠ لن تعيش منبوذا وفى صدرى نفس يتردد ٠ أنت لى ، وأنا أحبك !

فتمتم : « ان شخصا مثلى لا يمكن أن يكون محبوبا ! »

فهتفت من أعماق قلبها :

- أقسم لك أنى ما أحببت فيك أكثر من نور عينيك !

ودنت منه وضمته الى صدرها لأول مرة ٠ ولأول مرة همت بتقبيل عينيه ٠ ولكنها قبل أن تفعل كان هو قد جثا عند قدميها وطفق يقبلهما ويقول :

- ما أنت بشر ٠ ان أنت الا ملك كريم !

وفى تلك اللحظة ، اهتز باب الكوخ اهتزازا عنيفا ، ثم فتح ، ثم ظهر على عتبته شيخ القرية والد ماريا ٠ فجمد

الدم فى عروق الفتاة • وتراجع أرماندو ، وضم قبضتيه ، وتأهب للدفاع عن حبيبته وعن نفسه •

وتقدم الشيخ مختلج الأعضـــاء ، مفغور الفم ، محتقن الوجه ، وصاح بابنته وهو يرعد :

ـ اذن هذا هو الرجل الذى تعشقين ؟ •• هذا المخلوق المشوه البشع الدميم• هذاالانسان الباطش الشقى الملعون؟
لقد أنبأونى أنك جئت بالأمس الى هنا فلم أصدق • فراقبتك اليوم حتى وقفت بنفسى على حقيقة سرك •• أيكون هـــذا الرجل وصمة القرية وذعر الناس ثم تحبه ابنتى ؟!•• أيكون هو السبب فى مرض أمك وموت شقيقتك ثم ••

وعقد السخط لسانه وعجـز عن الـكلام ، ولكنـه انقض على ابنته وجذبها من ذراعها وصرخ :

ـ عودى من حيث أتيت !

فتملصت منه الفتاة وقالت فى هدوء مروع :

ـ هذا الرجل سيكون زوجى !

فهال الشيخ ما سمع ، واندفق الدم الى رأسه ، وتعاقبت دقات قلبه المنهوك •

لم يستطع أن يتصور ابنته ملكا لهذا الوحش فبرح به الألم وفرط التأثر ، وظل لحظة طويلة جاحظ العينين ، ينقل بصره الذاهل فيما حوله ويلهث • وفجأة ، وقبل أن تتنبـه ماريا ، وقبل أن يتدخل أرماندو ويحاول الكلام ، وضـع الشيخ يده على قلبه ، ثم صرخ صرخة مدوية ، وتهاوى على نفسه ، وسقط على الأرض •

ولم تكد ترتمى عليه ابنته ، وتتحسس بيديها المرتعشتين أطرافه ، حتى أرسلت هى الاخرى صيحة ممزقة وهتفت :

ـ مات ! ... مات والدى !

عندئذ ، حانت منها التفاتة ، فأبصرت والذهول يغشى بصرها ، والرعب يخنق صوتها ، أبصرت أخوتها وعمها وجمعا كبيرا من أهل القرية كان قد تبع والدها ، يقتحمون الغرفة ، ثم ينحنون على الجثة ، ثم يحيطون بأرماندو وينقضون عليه ، ويجرونه الى الخارج جرا وهم يصيحون :

ـ قتل شيخ القرية ! .. رماه بلعنة عينيه ! .. أقتلوا الوحش .. تخلصوا من الزنديق ! .. ارجموا القاتل !

وتصاعدت صرخات النساء ، وعلا نحيبهن ، وأنشبن أظفارهن فى وجه أرماندو ، وأسرع الصبية يجمعون الأحجار ، وتهيأ الشباب لرجم القاتل .

وانطلقت ماريا شبه مخبولة ، تشق الصفوف ، وتحاول انقاذ حبيبها الذى كانت تتلقفه الأيدى ، وتتخطفه اللطمات ، وهو مبهوت ومذعور يتطلع اليها كالغريق وقد سالت من وجهه الدماء .

ولما تكدست الأحجار وأزفت ساعة التعذيب والقتل ، عادت ماريا فاخترقت زحمة الجماهير ، وجثت أمام أهل القرية على الارض ، وعفرت رأسها بالتراب ثم توسلت اليهم وهى تشرق بالدمع ، أن يقتلوها مع حبيبها المنكود أو يرحموه من الرجم .

ولكن عمها الشاب توسط الجمهور وصاح يذكى

حماسته :

– ارجموا القاتل ٠٠ يجب أن تتخلص كورسيكا بأسرها من لعنة عينيه !

فاضطرب الجمهور وماج ، وشرع الشبان والغلمان يلتقطون قطع الاحجار ٠ واذ ذاك ، اذ ذاك فقط ، ثاب أرماندو الى رشده ، واستفاق من سباته ، وأحس قوة خارقة تملأ صدره وتدفعه الى الاقدام على عمل عظيم يبقى على حياته ، ويحفظ له حبه ، وينقذ القرية من لعنة عينيه !

ودفع الجمهور المتألب عليه وصرخ : « **رويدكم ٠ ما الفائدة من قتلى ما دمت أنا نفسى سأخمد لعنة عينى ؟ !** »

وفى مثل لمح الطرف ، جثا على ركبتيه ، ومد ذراعيه المرتعشتين ، ثم أرسل الى حبيبته نظرة أخيرة ، ثم دفع يديه فى الارض ، وطفق يأخذ حفنات من الرمل والتراب ويضرب بها عينيه ، والناس من حوله مشدوهون حيارى ، قد أخذتهم روعة الموقف ودب الشلل فى أيديهم ، وتساقطت منها الاحجار ٠

ولما أبصروه والظلام يغشى محجريه ، أعمى ، ضائعا تائها مسكينا ، يدور حول نفسه ، ويتلمس طريقه ، مفقود البصر ، مجردا من سلاحه ، عاجزا عن الحاق أى أذى بهم ، اطمأنوا على أنفسهم وعلى أبنائهم وعلى قريتهم ، وصاحوا مغتبطين مهللين ، ثم انقلب حقدهم الى رثاء ، وسخطهم الى رحمة ٠ فأقبلوا عليه يواسونه ، ويطيبون خاطره ، مشفقين مستغفرين نادمين ٠

أما هو فقد ردهم عنه ملهوفا ، وانطلق يشق الفضاء بيديه المتحسستين المرتعشتين ويصرخ باحثا عن حبيبته :

ـ ماريا .. ماريا .. يا نور قلبى ، وضـــوء روحى ، ونعمة ربى ، وكل ما بقى لى فى هذه الدنيا ، أين أنت ؟

وظل يتخبط بين الجمهور ، متجه البصيرة اليها ، مشرئب العنق الى طيفها ، متلهف القلب على لمسها ، باحثا عنها بيديه الممدودتين المتضرعتين البائستين ..

وهداه الحب واليأس آخر الأمر اليها . فأمسك بذراعها ، وتشبث بها ، وطفق يقبل الذراع البضة النـــاعمة وهو يهتف :

ـ هذه أنت يا ماريا ! .. نعم . هذه أنت .. عرفتك من عطر شعرك ، ونسمة بدنك ، وملمس ذراعك ! .. لن ننفصل عن بعضنا البعض بعد الآن ! .. لن يفرق بيننا بعد اليوم انسان ! .. سنعيش ونفرح معـــا ، ونتألم ونموت معـــا يا حبيبتى !

وكان الأعمى يتكلم وهى تحدق الى وجهـه البشع ، والى تقاطيعه الشوهاء ، والى القرحتين الداميتين اللتين حلتا محل عينيه المعبودتين الساحرتين ..

واختلجت ماريا بالرغم منها . اختلجت وانقبض صدرها . أحست على دهش منها أن حبها القوى ، حبها الجارف ، ينفر من هذه الدمامة ، ويرفض احتمال التضحية .

أدركت أن الاشمئزاز قد قتل فى نفسها الحب ، وانها لم تحبب أرماندو لنفسه بل لجمال عينيه ، وأن حبها قد زال

بزوال هذا الجمال . ففضت من بصرها ، وجذبت ذراعها ، وتملصت من الأعمى ، ثم أخفت وجهها بين راحتيها ، ومضت تعدو كأنما هي تفر من خطر داهم ، وصوتها الابح المخنوق يردد : « **لا أستطيع ! .. لا أستطيع !** »

ولبث أرماندو في مكانه جامدا ، مرفوع الرأس ، مشرئب العنق ، مبسوط اليدين ، أشبه بتمثال مروع أقامته الطبيعة رمزا للقدر الغاشم الأعمى !

ولما ابتعدت ماريا ولم يعد يسمع صوتها ، ولا وقع خطواتها ، أمال أرماندو رأسه على كتفه ، وصعد نفسا مستطيلا ، ثم أرسل ضحكة قصيرة ساخرة ، ثم استدار وأقصى الناس عنه ، وانطلق بمفرده ممدود الذراعين ، وئيد الخطى ، يشق الفضاء بيديه ، ويتلمس بنفسه طريقه ، حتى وصل الى الكوخ ، فارتمى على عتبته شاردا ذاهلا ، لا يتحرك ولا يتكلم ولا يبكي كأنما هو قد جن أو صعق !

* * *

وفي صباح اليوم التالي وجدوه مشدود العنق الى نافذة غرفته ، مشنوقا بحبل من القنب ، قد فارقته الحياة !

صريع الخيـــال

بطل هذه القصة الواقعيـة شـــاب مراكشي يدعى « سلمان » ، انحدر من أسرة فقيرة وظفر بقسط من الثقافة المتوسطة • ولكن سبل العيش ضاقت به في بلاده فنزح الى فرنسا ، فتبعه حظه العـاثر ، وانتهى به المطاف في مرسيليا حيث اشتغل حمالا في مينائها • وقد وقفت على قصة غرامه العجيبة هذه من صديق لي:

* * *

أراد سلمان أن يتخلص من بائعة الزهور الجميلة ماتيلدا، ولكنها كانت تلاحقه ، وتتشبث به ، وتكاد تتوسل اليه أن يظل معها ، وأن يمتنع عن الذهاب الى ذلك البيت !

وطفق يمشي وهي تتبعه ، فتضايق والتفت اليها صارخا :

ـ قلت لك أني أبحث عنها ! عن بلانش ! أقتفي أثرهـــا منذ ثلاثة أعوام ! لقد كنت أحبها ، كنت أعبدها ، ولكنهـــا خدعتني وفرت من باريس في صحبة شاب ثري علمت أنه غرر بها ثم نبذها !

فقالت ماتيلدا وهي تحدق اليه :

ـ وما أدراك أنها هنا في مرسيليا ؟

فأجاب في عنف وهو يدفع الفتاة :

ـ أبصرتها بعينى منذ أسبوع تدخل هذا البيت ! ولكن الأقدار الساخرة حالت بينى وبين الاتصال بهـا ! كنت فى صحبة قبطان الباخرة ، وكان يجب أن نفرغ كمية كبيرة من البضـــائع فى المينـــاء ؛ فلم أستطع ترك عملى واللحـــاق ببلانش !

فجذبته ماتيلدا من ذراعه وهتفت :

ـ لا تدخل هذا البيت ! اياك أن تدخل هذا البيت !

فقطب حاجبيه وصاح :

ـ وما شأنك أنت ، ومن تكونين ؟ لقد عرفتك منذ يومين فقط ، أما بلانش فهى كل حياتى !

فضمته الفتاة اليها وقالت وهى توشك أن تقبل يديه :

ـ انى أحبك ، فتعـــال معى وانس بلانش !.. خذ كل ما أملك ! نقودى ! مجوهراتى ! كل ما ادخرته من مهنتى فى عشرة أعوام ! خذه واتبعنى ! لا تحطم حياتك ! لا تقتل تلك الفتاة التى خدعتك !

فرشقها سلمان بنظـرة هائلة وقال وهو يقهقـه قهقهـة غريبة لم تسمعها ماتيلدا من مخلوق :

ـ أنا أقتلها ؟ أقتل بلانش ؟ أقتل نفسى ! .. أنت حمقاء! .. أنا أعيش بطيفها !.. أستمد حياتى من خيالها ! أتنفس وأتحرك بفضل ذكراها . لقد كانت أفتن وأروع صـــورة عرفتها للطهارة والجمال !.. كانت وما تزال حبى الأول ، وأملى الأوحد ، ومثلى الأعلى فى هذا العـــالم !.. فكيف اذن أقتلها ؟ انى متأهب للصفح عنهـا ، حتى ولو رأيتهـا بين

أحضان صعلوك !٠٠ سأقبل تراب قدميها ! سأمسح عارها بذكرى ماضيها ! سأطهرها وأنقذها ، والا فأنا الذى سيموت لا هى !

فارتعشت ماتيلدا وصاحت :

– أتعلم الى أى بيت تريد أن تدخل ؟

فانتهرها سلمان وقال :

– كل بيت يؤوى الأمل جنـة ، وكل أرض تبعث الحب وطن !

ودفعها مرة ثانية ثم اقتحم باب البيت ، ودخل ٠٠

دخل وهى فى أثره ٠ ولكنه لم يلتفت اليها ٠ لم يحفل بها ٠ لم يشعر بوقع أقدامها ٠٠

ونظر حوله واذا بدهليز طويل يفضى الى بهو كبير تلوح بين جدرانه أبواب مغلقـة ٠ فتوقف لحظـة وتفرس فى الأبواب !٠٠ لم ير شيئا ولكنه سمع غمغمة طويلة رهيبة تشوبها أصوات مبتهلة متقطعة كأنها صلوات ! فجمـع أنفاسه ، ومشى على أطراف قدميه ، ودنا من البـاب الذى تنبعث منه الغمغمة ، وحنى رأسه ، وأرهف أذنيه ٠٠

وفجأة ، جحظت عيناه ، وتعاقب خفقـان قلبه ، وشحب وجهه شحوبا مروعا فظيعا ، فأشفقت الفتاة عليه ، وهمت بأن تلمس ذراعه لتحذره ، ولكنه أجفل وصرخ ، ثم دفـع الباب بالرغم منه ودخل الحجرة وهو يلهث ٠٠

ولم يكد يخطو خطوة حتى بهت وتراجع وجمد ٠٠

أبصر حبيبته .. بلانش .. بلانش نفسها .. مسجاة على سرير ضيق مستطيل كأسرة المستشفيات أو محفـات الجرحى ، وبجوارها كاهن يتلو صلاة من كتاب ، وحولهـا أربع شموع مضاءة ، ورهط من أولئك النسـاء المتبرجـات الفاجرات اللائى طالما شاهدهن سلمان فى ميناء مرسيليـا يغازلن البحارة ، وعرف أنهن من بنات الشوارع بائعـات الهوى ! واستنكرت احداهن جرأته وهمت بطـرده . ولـكن الكاهن ردها باشارة ، ومضى يتم صلاته .. فأنحنى سلمان ، وحدق الى السرير ، فأخذت عيناه وجهـا أصفر كالشمع ، وعينين هامدتين ، وخدين غائرين ، وابتسـامة سـاحرة فى جمودها ، ترفرف على هذه الجثة البالية كأنما هى تودعهـا الوداع الأخير !

وظل سلمان زائغ البصر ، مغفور الفم ، يحدق الى السرير كأبله . ونهض الكاهن وقال وهو يطوى كتابه ويشيح بوجهه مجنبا بصره رؤية البغايا :

ـ لقد أسلمت الروح متممة فروضها الدينية ! فأدفنوهـا الآن ولا تبكوا عليها !.. كانت زانية . ولكن مريم المجدلية كانت زانية أيضا فتابت الى الله فاستحقت الرحمة والمغفرة !

والتفت الى رهط النساء ، وأردف دون أن يتطلع اليهن :

ـ ليكن لكل واحدة منكن فى مأساة هذه الفتـــاة عبرة وعظة ! من تاب الى الله فله المغفرة الدائمة والنعيم الأبدى !

وانصرف الكاهن مرفوع الرأس وئيد الخطى ، فانسـل سلمان من الحجرة ساهما تائها منسحقا ، ويمم وجهه شطر

الباب العمومى دون أن يفكر فى ماتيلدا ...

وقبل أن يجتاز البهو الكبير سمع احدى النسوة تذكر الميتة وتقول :

— المهنة أنهكتها ، والسل قوضها ، والخمر أجهزت عليها ! يا لخوفى أنا أيضا من هذا المصير !

وهتفت صاحبة البيت فى أسف :

— لقد كانت بلانش أجمل فتاة عندى . ان خسارتها لاتعوض !

وصاحت وهى تبحث عن الزائر الدخيل :

— ولكن من ذلك الشاب الذى اقتحم البيت فى مثل هذه الساعة ؟ ألم أقل لك يا مارى أن تغلقى الباب بالمفتاح ؟ ولكن أين هو ؟ لعله يطلب امرأة ..

وعدت صوب الدهليز الطويل ، ولكن سلمان كان قدوصل الى الشارع ، واستدار من فوره ، وانطلق فى زقاق مظلم ، ولبث واقفا تحت أحد المصابيح شارد الذهن ، طائر اللب ، موزع الخواطر ، يستذكر ما سمع وما رأى ، ويوشك أن يترنح ويسقط من فرط اللوعة والحسرة والألم ..

وردد كمخبول : « كانت زانية ! » .. وأحس أن قلبه ينخلع وان كيانه يتمزق ، وأن حياته أصبحت خاوية من كل تعزية وكل أمل وكل نور !

سدت أمامه السبل . أوصد اليأس فى وجهه كل باب . جثمت الوحدة على صدره كوحش كاسر ، فدس يده فى جيبه ، وتحسس مسدسه ، وفكر فى الموت ..

فكر فى الموت لحظة ، ثم فكر فيه طويلا ، ثم واجه طيفـه بعزم ثابت وتهيأ !٠٠ تهيأ للانتحار ! تهيأ لملاقاة العدم! ٠٠ تهيأ للحاق بمن يحب !٠٠ وعندئذ دوت صفارة احدى السفن الراسية فى الميناء ، والتمعت السماء فجأة ، وانجابت عنهـا السحب ، وبرز منها القمر مستكبرا متحديا ، وطفق يصب على الزقاق نوره الفضى الســاطع ، فنظر سلمان الى القمر وعزت عليه الحياة ٠٠

لم يستطع أن يتصور الموت ٠ لم يستطع أن يتخيل العدم٠ لم يستطع أن يتمثل نفسه خاوى الروح من الفكرة التى كان يعيش بها ، مقفر القلب من الجمال الذى كان يهيم به ، مجرد العاطفة والاحساس والخيال من مثله الأعلى ، فتطلع الى القمر وسبح ، وتطلع الى السماء وشرد ، ثم أجال الطرف حوله ، فوقع بصره الزائغ على شبح ماتيلدا التى كانت واقفة عن بعد تحدق اليه فى أسى ممزق عميق وتنتظر ٠٠

وما أن رآهــا حتى أومض خاطره ، وأشرقت فكـرته ، وتوثبت نفسه ٠ فاندفع اليها ، وأمسك بذراعها ، ونـاداهـا بصوت عذب رقيق :

ــ بلانش !٠٠٠ بلانش !

فأجفلت الفتاة وغمغمت :

ــ من ؟٠٠٠ أنا ؟٠٠ تنادينى أنا ؟٠٠ بلانش ؟٠٠ نعـم ٠٠٠ أنا هى بلانش !

وماتت ماتيلدا وبعثت فى صورة بلانش ٠ ماتت عن طواعية ورضا ٠ ماتت فى سبيل حبها وحبيبها ٠ أنكرت شخصيتها ٠

خنقت طباعها . أخمدت ميولها وأهواءها . نزلت عن ارادتها واستعذبت الفناء فى وجه غريب عنها ونفس لاتمت اليها بأية صلة .

وكان سلمان يخلع عليها اسم بلانش فى يقين العابد المؤمن ، ويضفى عليها جمال بلانش فى عناد العاشق الظافر ، ويظل يحدثها عن ماضى بلانش حديث المعجب المفتون ، باذلا قصاراه فى خلقها خلقا جديدا ، ورياضة نفسها واحساسها وعقلها الباطن على الشعور بأنها هى بلانش ، وأنها لم تكن فى لحظة من اللحظات ماتيلدا الحسناء بائعة الزهور .. وكانت الفتاة بين غفوة عقلها الواعى ويقظة عقلها الباطن ، تسايره فى رقة ، وتمالئه فى عطف ، وتطيعه فى حنان ، فكان يشعر بسعادة لا توصف .. وكانت هى الأخرى تحس بالاطمئنان والرضى،وأنها متأهبة لهذه التضحيةالخارقة حتى نهايةالحياة .

ومع ذلك فقد كانت مضطربة . كانت قلقة . كانت تفتقد نفسها فى بعض الأحيان فلا تجدها . وتنظر الى وجهها فى المرآة فلا تعرفه . وتتأمل محاسنها فى هدأة الليل ، فيخفق قلبها ويقشعر بدنها ، اذ تحس وهى ساهمة شاردة أن شبح الميتة هو الذى يتمثل فيها ، وهو الذى ما ينفك يحوم ويرفرف على فتنة أعضائها ..

وانقضت ثلاثة أشهر خالس فيها سلمان النعيم . طوع العالم لارادته . أخضع الحب لخياله . أذل القدر لسلطانه ، فلعبت برأسه نشوة السعادة وجرفته ..

كان سعيدا بنفسه ، سعيدا فى محيطه ، فلم يقنع ، وأراد

أن يعلن سعادته على الناس ٠٠ **أراد أن يشعر الكل بقـــوته ، ويباهى أمام الكل بنصره ، ففتح بيته لأصـــدقائه وخلانه ، وجعل يعرض عليهم فى كبر وزهو كنزه العزيز المطمور ، وراع أصدقاءه جمال امرأته ، فتوددوا اليهـــا فى تحفظ ، وتقربوا منها فى أدب ، ماخلا شابا منهم ، لاخلاق له ولا ضمير ، ألقى شباكه عليها ، وعقد العزم على أن يغرر بها ويتخذ منهـــا عشيقة له !**

وكان سلمان قد اختار أصدقاءه من العمال الذين لم يطرقوا الملاهى الممتازة ولم يعرفوا ماتيلدا أيام كانت تغشاها لتبيع الأزهار ٠ بيد أن ذلك الشاب اللئيم الطبع ، الوضيع النفس ، استفسر عنها ، وأدرك سرها ، وأيقن أنها فريسة سهلة المطاردة والقنص ٠٠ وشرع يغافل صديقه ويحدثها عن جمالها هى ، وعن فتنتها هى ، وعن شخصيتها هى ، وعن كل ما يميزها عن سائر النساء ، فاضطربت المرأة وحارت ٠٠ ثم قاومت وثبتت ٠٠ ثم همت بمصارحة سلمان ، ولكن العاشق الجديد كان جميلا ، واغراءه كان طريفا ، واطراءه المنصب على الواقع لا على الخيال كان ساحرا وعجيبا ، بحيث خضعت له المرأة وتنبهت ، وتحرك فيها ماضى حياتها وجوهر شخصيتها شيئا فشيئا ٠٠

وعلى هدير هذا الحب المستمد من جاذبية حقيقـة حيـة ، النابع من صورة حسن معين ، الصادر عن أعجاب صريح ٠٠ بجمال كائن نابض ملموس لاتنعكس عليه أضواء دخيلـــة يزينها الوهم ويزخرفها الخيال ، **استفاقت ماتيلدا فجـــأة ، ونهضت من قبر حلمها ، ونضت عنهـا غلائل الموت المنـكرة**

البيضاء ، التى كانت قد كفنت نفسها فيها منذ أن تبدلت وتحولت واندمجت فى شخصية بلانش !

ولم تكد ترتد الى نفسها حتى ثار ثائرها على جبنها ، وعلى ذلها وعلى عبوديتها ، وعلى الأيام الطويلة التى قضتها آلة مسخرة لنزوات وأوهام سلمان !

وكان سلمان ـ لفرط نشوته ـ لا يرى شيئا ، ولا يشعر بشىء ، ولا يفطن الى شىء ، فضاعفت أنانيته سخطها وولدت فيها رغبة جارفة فى التحرر والخلاص ..

وفى ذات مساء ، وسلمان يلاطفها ، ويعانقها ، ويغدق عليها من فيض خياله تلك العبارات الشائقة الساحرة التى كان يخاطب بها الاخرى ، عيل صبر ماتيلدا وضاق صدرها ذرعا ، فصاحت به صيحة كراهية وحنق وهى تدفعه عنها :

ـ أما آن لك أن تعقل وتفهم !

فنظر اليها مستغربا وقال :

ـ ما بك اليوم يا بلانش ؟

فانفجر حقدها متدفقا كالسيل وصرخت :

ـ لست بلانش ! .. أنا ماتيلدا ! .. وسأظل منذ اليوم ماتيلدا بائعة الازهار لا بائعة الهوى !

فجحظت عيناه وتمتم :

ـ محال ! هذا محال ! لا أفهمك ! ألست أنت بلانش ؟

فضحكت ضحكة صفراء وهتفت :

ـ لقد انتهت المهزلة ! .. وما كان فى مقدورى ولا فى مقدور أى انسان أن يموت عن نفسه طائعا مختاراً وهو مع ذلك يتحرك

ويتنفس ويعيش !٠٠ لا ٠٠ لن أبقى معك لحظة !٠٠ وسأرحل ٠٠ سأرحل منذ الساعة !

فحملق فيها بعينين تائهتين ، وصاح وهو يبسط ذراعيـه متوسلا مستجديا والدموع تترقرق على خديه :

ـ وماذا يحـــل بى لو رحلت ؟٠٠ الى أين أذهب ، وكيف يمكن ٠٠ كيف يمكن أن أعيش بعدك يابلانش ؟

فرمته بنظرة هائلة وصرخت :

ـ أما زلت تحلم ؟ ٠٠ اذن فسأوقظك !٠٠ لابد ٠٠ لابد أن تستيقظ كما استيقظت أنا ! ٠٠ تعال ٠٠٠ تعال معى !

ولم تمهله لحظة ، وجذبته من ذراعه وهو ذاهل ، وخرجت به الى الشارع الفسيح ٠ ثم دفعته أمامها دفعا ، وعرجت به نحو الزقاق المظلم ، وواجهته فجأة بالبيت الملعون ٠٠ البيت المتألق الصاخب المستباح ٠٠

وقبل أن يتنبه ، أمسكت به ، واقتحمت البـــاب ، ثم اجتازت الدهليز الطويل ، واندفعت من البهو الكبير صـوب الحجرة التى ماتت فيها بلانش ، وصاحت وبنات الهـوى يحطن بها مذعورات وصاحبة البيت تركض فى أثرهـــا مستنكرة :

ـ هنـا عاشت بلانش ! ٠٠ وهنـا ٠٠ هنـا ماتت أمام ٠٠ أنظر ٠٠ أنظر !

وأشارت الى الحجرة والفراش ورددت :

ـ أنظر ! أنظر وتذكر !

فأجال سلمان الطرف حوله كمجنون ، ثم نظر الى النسوة

المذعورات ، وتفرس فى السرير ، ثم حدق الى ماتيلدا تحديقا ثابتا هائلا غريبا وقال وهو يرتعش : « أنا لا أذكر ٠٠ لا أعرف ٠٠ لم أعرف تلك المرأة التى ماتت هنا ! انها لم تعش معى !٠٠ لم تكن لى !٠٠ أنا لاأعـــرف غيرك أنت !٠٠ أنت بلانش !٠٠ أنت بلانش الأصيلة الكريمة التى منحتنى جسدها ونفسها واسعدتنى !٠٠ فكيف ٠٠ كيف تمنحيننى الحيـاة يابلانش ثم تسلبينها منى ؟! » ٠

فجن جنون ماتيلدا وصاحت :

ـ اليك عنى فأنت معتوه !

وهمت بالتملص منه لتفر ، ولكنه تشبث بها وصرخ :

ـ **لا تتركينى !**

فدفعته عنها فى عنف ، فظل ممسكا بها ، فقاومته ، فلطمها، فانشبت أظافرها فى صدره ، فقبض على عنقها وصاح وهـو يضرب النسوة المذعورات بمرفقيه ويهدر :

ـ لقد خدعتنى بلانش مرتين !٠٠ فيجب ٠٠ يجب أن تموت مرتين !

وضغط على عنقها بكلتا يديه ، فاختلجت المرأة وترنحت ، ثم أختنق صوتها ٠٠ وانهارت على الفراش جثة هامدة !

ولما أبصر الموت يرفرف عليها ويسلبها منه للمرة الثانية ، قهقه قهقة وحشية مدوية ، وارتمى على الجثة ، وطفق يضمها ويقبلها ويصيح :

ـ **بلانش !٠٠ بلانش !**

وخولط سلمان فى عقله ، فحملوه الى مستشفى المجاذيب٠٠

يقظة ضمير

كان السنيور « ماريو » قد اشتهر فى تلك القرية الايطالية النائية بأنه جمع ثروته من عرق الفلاحين ، وأنه طالما استبد بهم ، وكبلهم بالديون ، وساقهم الى بيع مواشيهم ، وشردهم هم وأبناءهم فى القرى المجاورة يرزحون تحت وطأة المرض والجوع .

وكان قد زهد بعد ذلك فى امتلاك الضياع ، فباع أرضه ، وشيد فى القرية مصنع زجاج ، حشد فيه طائفة كبيرة من العمال ، شرع يستبد بهم أيضا ، ويستنزفهم ويسومهم مر العذاب ..

والحق أن ذلك الرجل الطماع المستبد ، كان مخلوقا فظ الطباع ، وضيع النفس ، متحجر العاطفة ، لاتنفذ الى قلبه أشعة من رحمة ، ولا تحول بينه وبين ارواء غرائزه البهيمية أية فضيلة منبعثة من شعور طيب أو ضمير حى .

كان سكيرا ومقامرا وزير نساء . وكانت فتنة المرأة تجذبه، وجمالها البدنى المجرد يخلبه ، ويشيع فى نفسه الوضيعة أحط الميول وأحقر الرغبات .

ولم يكن ليتعفف عن نساء عماله . بل كان على النقيض يتهافت عليهن ، ويساومهن على فقرهن ، ويستخدم ماله وسلطانه فى محاولة البطش بكل ضعيفة منهن !

ولقد أوشك أن يقتل ذات مرة بيد أحد العمال ، فدب فى قلبه الرعب ، وكف عن مغازلة العاملات ، ولم يعد يفكر الا فى امرأة واحـــدة فقط هى زوجة موظف صغير فى مصنعه يدعى « امبرتو » ..

هذه المرأة الشائقة الحسن سحرته ، وملكت عليه قلبــه وحواسه ، فظل يتحين الفرص لتصيدها ، وهو يتربص بها وبزوجها الدوائر ..

ففى ذات ليلة من ليالى الشتاء ، والريح تصفر ، والمطــر يهطل ، والسماء ملبدة بالسحب ، حالكة الظلام ، كان قصر السنيور ماريو ساكنا هادئا ، ينهض فى طرف القرية النائية كأنه يتحداها ويهددها ..

ودقت الساعة دقتين بعد منتصف الليل ..

وفجأة تسلل الموظف الصغير أمبرتو من بين أشجار حديقة القصر ، وطفق يتلفت يمنة ويسرة ، ثم أرخى قبعته على عينيه واندفع نحو شرفة القصر وتسلقها مسرعا وهو يلهث .

وكان قلبه يخفق ، وأوصاله ترتعد ، ولكنه تمالك نفســه وأدار كرة الباب فى رفق ، وانســل الى مكتب السنيور ماريو صاحب المصنع ، حيث شرع يعالج الخزانة الحــديدية التى كانت جاثمة أمامه فى زاوية الغرفة .

ولما تمكن منها ، وفتحها ، وأبصر مافيها من حلى ومجوهرات وأوراق ، جحظت عيناه ، وانخلع قلبه ، ودبت فى أصابعه رعدة عنيفة أشاعت فى نفســه لأول مرة احســاس القلق والخوف . ولكن منظر المــال بهره ، وسكون القصر شجعه ،

وحاجته الملحة الشديدة ردت اليه فى مثل لمح الطرف قوى العزم والعمل . فمد يده الى الاوراق المالية ، وانتزع منها رزمة صغيرة متواضعة قدر أنها تكفيه . ثم استدار واتجه بخطى متلصصة نحو الباب .

وعندئذ ، سمعت حركة خفيفة فى الحجرة المجاورة، فانتفض امبرتو وسقطت منه محفظة جيبه قبل أن يدس فيها الاوراق المالية ، فاضطرب وارتبك وخشى أن يتلكأ ، وأسرع بالمال متلهفا مذعورا غير مكترث لشىء ..

* * *

وفى صباح اليوم التالى اكتشف السنيور ماريو صاحب المصنع أنه قد سرق . فلما تبين له أن اللص لم يسرق غير مبلغ محدود ساورته الشكوك والريب ، وذكر من فوره الموظف الصغير امبرتو ، والكارثة التى حلت به ، وحاجته الماسة الى المال . فخفق قلبه ، واضطرمت غرائزه ، وطفق يفكر ويطوف بأرجاء الغرفة باحثا منقبا عن أثر ، حتى عثر فى النهاية على المحفظة الجلدية التى سقطت من يد السارق واستقرت فى احدى الزوايا بجوار عتبة الباب !

وما كاد يلمحها حتى انقض عليها انقضاض الوحش . وما كاد يبصر عليها الحرفين الاولين من اسم امبرتو حتى لمعت عيناه ، وأبرقت أساريره ، فدس المحفظة فى جيبه وقد ارتسمت على وجهه المغضن الممتقع الغليظ ابتسامة خبيثة مروعة !

* * *

وبعد لحظات كان السنيور ماريو قد أشرف على المنزل المتصدع المتهدم الذى يسكنه امبرتو · وبغير أن يستأذن دفع الباب فى عنف ودخل ··

وكانت « جراسيا » زوجة الموظف الفقير والمرأة الشائقة الحسن التى طالما اشتهاها ماريو وتربص بها ، منحنية على مائدة صغيرة تعد قدحا من الشاى ، وقد استرسل شعرها الذهبى الجميل على جيدها الناصع وبرزت ذراعها البضة من خلال ثوبها الليلى الفضفاض : أشبه بقبس من نور يعكس ضوءه الساحر على قوامها المشوق الذى كان يتثنى تارة ويموج أخرى ، أوفر ما يكون ملامحه واغراء ونضرة وفتوة ··

ووقف السنيور ماريو مسلوب العقل ، طائر اللب ، يتأمل جمال المرأة التى يتلهف عليها ويشتهيها · ثم دنا منها وحياها فى أدب وهو يبتسم ··

ولم تكد تبصره حتى أجفلت ، وجمعت حول صدرها أطراف غلالتها ، وهمت بالكلام · ولكنه ابتدرها قائلا وهو يحدق مفتونا الى شعرها الذهبى البديع :

– أين امبرتو ·· لم أره بالأمس فى المصنع !

فاختلجت المرأة اختلاجا عنيفا ، وأجابت تومىء بأصابعها الى الغرفة المجاورة :

– انت تعلم اننا هنا فى قرية نائية ليس فيها غير مستوصف صغير ·· وان ابنتى ·· ابنتى الوحيدة ·· ابنتى «مادلينا» مريضة ومهددة بالموت ·· ويجب أن تجرى لها عملية استئصال الزائدة فى أسرع وقت والا قضت نحبها ! ·· فأكبر ظنى أن

امبرتو قد ذهب الى المدينة ، يبحث عن مال ويسعى فى استقدام طبيب ..

فقطب السنيور ماريو حاجبيه ، وتقدم خطوة ، وقال فى صوت هادر أجش :

— لقد وجد امبرتو المال !

فصاحت المرأة وقد خنقها الفرح :

— أين وجده ، ومن أعطاه اياه ؟ ..

فابتسم ابتسامته الخبيثة وقال :

— أنا !

فغمغمت المرأة مذهولة وهى تتأمله :

— ولكنه أنبأنى أنك رفضت .. رفضت أن تقرضه أى مبلغ على حساب مرتبه !

فقال السنيور ماريو فى هدوء مروع :

— أجل رفضت . فدب اليأس فى نفس زوجك ، فأقدم على السرقة ! .. نعم لقد سرق المبلغ ! .. سرقه من بيتى ! .. من خزانتى .. !

فشخصت اليه المرأة كمعتوهة وتمتمت :

— سرق ؟ !

فصاح وهو يلوح أمامها بالمحفظة :

— نعم ، وهذا هو الدليل ! .. سقط منه سهوا فى حجرة مكتبى فعثرت أنا عليه !

وصمت لحظة وهو يلهث ثم اندلعت عيناه وتدلت شفتاه ، وشطرت وجهه المغضن الدميم ضحكة فاترة ، وقال وهو يمسك

بذراع المرأة فى رفق :

ـ لقد أصبح زوجك فى قبضتى ! ٠٠ وفى وسعى أن أسلمه الى القضاء بعد أن أفصله من عمله وأسجل عليه سابقة تحول بينه وبين العثور فى المستقبل على أى عمل !

فصرخت جراسيا :

ـ ولكنك لن تفعل ! ٠٠ لقد سرق بعد أن يئس من مساعدتك ! ٠٠ سرق من أجل ابنته ! ٠٠ أنت والد ! ٠٠ أنت والد ياسيدى ، ويجب أن ترحم ! ٠٠ استرد نقودك ٠٠ اقتطعها من مرتب زوجى شهرا بشهر ٠٠

فهتف السنيور ماريو وهو يلوح بذراعه ويضحك ضحكة شامتة صفراء :

ـ محال ! ٠٠ أكان يجب أن أكون الآن هنا لو كنت أبحث عن نقود ؟ !

فاندفق الدم الى وجه المرأة وقالت :

ـ اذن ماذا تريد ؟

فصرخ :

ـ أنت ٠٠ ! أريدك أنت ! ٠٠ تعلمين أنى أحبك من زمن بعيد ، وانى وقد فزت من الحياة بكل ما تصبو اليه نفس انسان من جاه ومال ، لم أعد أطمع الا فى قربك يا حبيبتى ! ٠٠ ان فى مقدورى أن أنتشلك من وهدة هذا البؤس واجعل منك أميرة بل وملكة ! ٠٠ فتخيرى ، اما السعادة معى واما الشقاء الابدى فى صحبة زوجك !

فصاحت جراسيا وقد فقدت صوابها :

ـ ولكنك تساومنى على حياة ابنتى !؟

فقال وهو يرسل نفس الضحكة الشامتة الصفراء :

ـ هو ذاك ! .. ولو رفضت فسأبلغ الساعة عن امبرتو ، واستولى على المبلغ المسروق ، وأحول بينكم وبين اجراء تلك العملية المستعجلة التى فيها انقاذ حياة ابنتك !

فذعرت المرأة ، وجن جنونها ، وارتمت عند قدميه ، وقالت وقد انفجرت من عينيها الدموع :

ـ ارحمنا ! لقد خدمناك عشرين سنة ! .. نحن أبناؤك .. نحن أسرتك ! .. نحن عماد ثروتك ! .. فأشفق علينا ولا تضطهدنا !

فتمتم فى صوت متلهب متحرق وهو يتأمل سحر عينيها وشعرها :

ـ امنحينى الآن قبلة ! .. قبلة واحدة فقط ! .. ثم عدينى بأن تلبى سؤلى ، وتوافينى صباح غد فى البهو الصغير الواقع فى الجناح الشرقى من قصرى ! .. قبلة وكلمة .. وأصبح طوع أمرك مدى الحياة !

وانحنى عليها وهم باحتضانها . ولكنها أفلتت منه وصاحت وقد تخطفها اليأس والذعر :

ـ رباه ! .. ماذا أفعل ؟ .. زوجى ؟! .. ابنتى ! .. حياتنا ومستقبلنا ومصيرنا !

وفى تلك اللحظة انطلق من الغرفة المجاورة صوت ممزق متحشرج ، يقول : « **أطرديه !** » ..

فاندفعت الأم نحو الباب صارخة :

ـ مادالينا ..

فغمغمت الفتاة المريضة وهى تتلوى على فراشها .

ـ لقد سمعت كل شىء يا أماه ! .. لا أريد هذا المال !.. لا أريد أن تشترى حياتى بمال مسروق !.. أولى بى أن أموت من أعيش وأحمل عارك يا أماه !

فصاحت جراسيا :

ـ العار فى أن تفكرى أنى قد أرضى بالعار !

والتفتت الى السنيور ماريو وهتفت :

ـ أخرج .. أخرج يا سيدى وافعل ما شئت !

وعندئذ فتح الباب ودخل منه امبرتو مصحوبا بالطبيب . فما أن لمحتهما الفتاة حتى قفزت من فراشها ، وتشبثت بأبيها ، وقالت له وهى تومىء بأصبعها الى السنيور ماريو :

ـ لقد سرقت هذا الرجل . ولكنى لا أريد أن تنقذ حياتى بمال مسروق ! .. لا أريد أن تجرى لى العملية ! .. رد المال الى صاحبه ، واصرف الطبيب ، وليكن ما يكون !

واتقدت نظراتها كبرا وأنفة ، واهتز رأسها شموخا وعزة ، وبدت فى جلال غضبتها الرائعة ، جميلة جمالا ساحرا يفوق جمال والدتها .**فنظر اليها امبرتو فى ذهول ، وحدق فيها الطبيب متأملا حسنها الباهر الذى اجتمعت فيه بغتة فتنة الضعف بفتنة القوة ..**

وعادت تهيب بوالدها وهى تهذر :

ـ رد المال الى صاحبه !

ثم تحولت الى الطبيب وأردفت :

– وأما أنت يا سيدى فتقبل خالص اعتذارنا ٠٠ نحن فقراء وليس فى مقدورنا أن نكافئك !٠٠ لقد عدلنا عن اجراء العملية !

واذ ذاك ، وفى تلك اللحظة الفاصلة التى قضت فيها مادالينا على نفسها صونا لشرف أمها ، تقدم الطبيب فى بطء اليها ثم ربت فى رفق على خدها ، ثم التفت حوله وقال فى صوت جهير :

– سأجرى العملية بدون مقابل !

فامتقع وجه السنيور ماريو،وأجفل امبرتو ، وبهتت جراسيا واستضاء محيا مادالينا ، وقالت لوالدها وقد أذهلها الفرح :

– اذن رد اليه المال حالا !

فثارت ثائرة السنيور ماريو ، وكبر عليه أن تفلت منه الفرصة على هذه الصورة ، وأن يفقد جراسيا الى الابد ٠ فصاح وارادة الانتقام ترن فى صوته الغائر الاجش :

– ولكنى لن أقبل المال هنا !٠٠ يجب أن يرده امبرتو أمام القضاء !٠٠ ويجب أن يسجن ، ويفصل من المصنع ، وتسجل عليه سابقة السرقة !

فتعلقت به جراسيا ، واستصرخته الرحمة ، وقالت وهى تقبل يديه :

– أعف عنه !٠٠ لا تدمر حياته ومستقبله !

فصاح امبرتو متحديا :

– وماذا يهمنى السجن وقد اطمأن بالى على علاج ابنتى !٠٠ اذهب ٠٠ اذهب وبلغ عنى !٠٠ واذا كان يجب أن أعاقب فأنا أرحب بالعقاب تكفيرا عن ذنبى !٠٠ أما مستقبلى فالله كفيل به!

فهتف الطبيب وهو ما ينفك يتأمل جمال الفتاة :

– الله وأنا !

فتطلع اليه الجميع مبهوتين مستفسرين ، فابتسم ابتسامة غريبة ، ثم أطرق برأسه لحظة ، ثم تحول صوب مادالينا ، وقال فى صوت يفيض عذوبة ورقة :

– ستنجح العملية يا آنسة ٠٠ وسأنقذك ! فاذا شئت بعد ذلك أن تكافئينى ، فأنا لا أرضى بأقل من يدك !

فصرخت الفتاة وقد خنقها الذهول :

– تتزوجنى أنت ؟!

فأجاب وهو يبتسم :

– وأغدق عليك وعلى أسرتك من مالى ما ينقذكم من براثن هذا الرجل !

فغلى الدم فى عروق السنيور ماريو ، وأحس احساسا ممزقا عميقا أنه لم يحقر أبدا ويمتهن كما حقر وامتهن الآن ٠ فعصفت بعقله لوثة كبريائه وسلطانه ، فأراد أن يتحرك ، أن يثب ، أن يصرخ أيضا ويتوعد ، لعله يسترد بعض ما فقد من كرامته ويستريح ٠ ولكن شيئا أقوى من غضبه ، وأقوى من كمده ، وأقوى من ذله ، أبقاه فى مكانه ساهما ذاهلا شاردا ، يحدق الى الأم تارة والى ابنتها المريضة تارة أخرى ٠٠

ولبث يحدق فى الجميع وهو مشلول الحركة ، مطبق الفم ، مكتوف اليدين ٠ فأبصر الطبيب ينحنى ، ويقبل يد مادالينا ، ثم يخرج أدواته من حقيبته الصغيرة ، ويخلع سترته ، ويصدر بعض الاوامر للوالدين ، ويتهيأ فى سكون لتأدية واجبه ٠٠

وانقضى وقت طويل ، وخيم على الحجرة صمت زافر يأخذ بالمخانق . ولما انتهى كل شيء ، وأتم الطبيب اجراء العملية ، وشاهد السنيور ماريو الفتاة مسجاة على الفراش ، مستغرقة فى النوم بفعل المخدر ، أشبه بجثة هامدة ، وأبويها من حولها يرتعدان خوفا وأملا ، ظل منزويا فى مكانه ، شاخصا الى الفتاة ، يلتقط أنفاسه جهده ولا يتحرك ..

ولما رأى الفتاة بعد ذلك تستيقظ ، وتتكلم ، وتبتسم لدموع وصرخات الفرح التى كانت تنبعث من العيون والصدور المشرئبة نحوها فى حب غامر وحنان عميق ، أحس على دهش منه أن بدنه يرتجف ، وان قلبه ، قلبه الجامد المستبد الغليظ، يغافله بغتة ويخفق .. **وان ضميره ، ضميره الميت المتعفن ، يستيقظ فجأة ويتحرك ، وتدب فيه حياة زاخرة صاخبة لا عهد له بها . فاضطرب واستنكر ، وعز عليه أن يكون ضعيفا . اضطرب وتسخط وحاول أن يكبح عواطفه** . ولكن مشهد الفتاة التى نزف منها الدم غزيرا وحطمها ، ومشهد الابوين البائسين اللذين كانا يهتفان بالشكر لله على نجاتها ، ومشهد الطبيب الشاب الذى كان قد سما بنبل نفسه وعلو همته الى أفق رائع من الشهامة والنخوة ، كل هذه الصور ضاعفت فى قلب السنيور ماريو احساسه بالخجل والندم والعار . فكبر عليه أن يكون جبارا ثم يبطش ، وأن يكون قادرا ثم لا يرحم ولا يعفو . كما كبر عليه أن يكون هذا الطبيب الدخيل أنبل وأعظم وأشرف منه . فتقدم خطوة وهو يتعثر . تقدم ثم تراجع ، ثم هدأ واستقر وعزم . فمد يده ، يده المرتعشة ، يده الضامرة

المعروقة الصلبة ، يده التى لم تحسن قط الى فقير ، وانتزع من جيبه رزمة كبيرة من الاوراق المالية دسها فى محفظة الزوج السارق ثم اندفع بخطى ثابتة ، وانحنى أمام الام الشامخة الابية ، وغمغم وهو يقدم اليها المحفظة :

— سامحينى ! ٠٠ وتقبلى منى هذه الهبة المتواضعة ٠٠ انها هدية ٠٠ هديتى بمناسبة عرس ابنتك !

ففغرت الام فاها كبلهاء ٠ وحملق فيه الكل مبهوتين واندفعوا نحوه وحاولوا أن يتشبثوا به ٠ ولكنه تملص منهم ، واتجه نحو الباب ثم انطلق لا يلوى على شىء ، وهو يشعر لاول مرة فى حياته أن قلبه يتفطر ، وأن عينيه الصارمتين الجافتين قد أفلتتا من رقابة عقله القاسى ، واختلجتا اختلاجا متعاقبا ، وانهمرت منهما الدموع ٠٠

تم الكتاب


سيارات
نصر
تستعمل
شل
X-١٠٠
زيت محرك السيارة
متعدد الدرجات


نحن نقرأ لك كل شهر عشرات الكتب
العالمية، القديمة والحديثة، كى ننتقى
لك كتابا من أروعها نقدمه إليك فى
منتصف كل شهر بنصه الكامل، فى
ترجمة دقيقة معتمدة مراجعة
دار "مطبوعات كتابى" لفخورة بأنها
ظفرت برضائك فى أعدادها الماضية
فما هى تحفتها القادمة التى أعدتها لك؟
اقرأ التفصيلات فى الداخل
مطبوعات كتابى
يصدرها: حلمى مراد
الترجمة الكاملة الأمين
لشوامخ الكتب العالمي